

## مقدمة : النفس المؤمنة

انتقاء و تجميع العناصر المتميزة بالذكاء والشجاعة من الشباب ، ثم تربيتها تربية عميقة شاملة صلبة : ركنان أساسيان في خطة الحركة الإسلامية .

وإنه - كما يقول أبو الحسن الندوي - : " لا بد من إنتاج الرجال الذين يقومون بالدعوة ويديرون دفتها ، ويربون الرجال ، ويملنون كل فراغ . وكل حركة أو دعوة أو مؤسسة مهما كانت قوية أو غنية في الرجال فإنها معرضة للخطر ، وإنها لا تلبث أن ينقرض رجالها واحداً إثر آخر ، وتفلس في يوم من الأيام في الرجال " <sup>1</sup> .

### • على الحركة الإسلامية أن تتفلس في نفسها :

ولكن هذه التربية ليست اكتيال جزاف ، فإن أخص خصائصها أنها تلبي نداء الحاجات المرحلية ، وتعالج الواقع . وفي كل أدب أرشد إليه الإسلام خير ، ولكن طاقة ذي النية الصالحة محدودة ، فواجب إقرار المفاضلة بين أجزاء هذا الخير ، والبدء بما هو أفضل ، وبما يسد حاجة المرحلة من بعد تشخيص النقص .

ذلكم هو الذي يوجب من بعد أن تتفلس الحركة الإسلامية الحاضرة في نفسها فإساسة خبرة ، في خلوة تأمل ، فتحدد نقصها ، وتحصي رصيدها ، ليأذن الله أن تصدق فراستها الأخرى في الناس ، وتحكم طريقها في هذا التصارع العنيف ، كما قال الزاهد الحكيم سمنون - رحمه الله - حين سئل عن الفراسة وحقيقتها ، فأجاب :

( إن من تفرس في نفسه فعرفها : صحت له الفراسة في غيره وأحكمها ) <sup>2</sup> .

وإنه لمعنى رفيع يكشف عنه سمنون في هذه الحروف القليلة ، ويحولنا إياه ، لنتخذ منه منطلقاً لفراسة نقدية نصف فيها أنفسنا و نحدد نقصنا ، ثم تحويل الفراسة إلى دراسة نسلوها ينابيع في صفوف الدعاة بإذن الله ، فيخرج بها دعاة ، يصدقون بالصدق الذي جاءهم عن ربهم ، و يحفظون أمره .

ولقد شهد التاريخ القريب لأجزاء الحركة بعداً عن الموازنة في أساليب التكوين والتربية ، وطغياناً في جوانب على جوانب أخرى ، فترى منطقة غلبة الجانب التعبدية وتزكية النفس ، وفي أخرى ترفاً فكرياً ، وفي ثالثة ولعاً بالمشاركة في أحداث السياسة اليومية ، فاختلقت الصياغات .

ومن حيثيات كثيرة يعرفها أهل المعاناة : بدأ يتضح الخط التربوي المتكامل الموزون ، المستدرك للنقص ، وتحددت ملامحه في غرس معاني :

❖ الحرص على الصلاة و تثبيت العقيدة .

❖ والالتزام بأدب الأخوة .

❖ و الفرح بالبذل و التعب اليومي .

❖ والشوق إلى الجهاد و الاستشهاد ، من دون تهور .

❖ والانضباط بالطاعة .

❖ و التقليل من الدنيا وطلب الخفة .

<sup>1</sup> مذكرات سائح في العالم العربي 79

<sup>2</sup> تاريخ بغداد للخطيب 236/9 .

❖ و ترقب الموت ونسيان الأمل الدنيوي .

❖ وحب الله تعالى ، في رجاء يضبطه خوف .

❖ و مفاصلة الذين كفروا والذين نافقوا .

❖ والصبر على المحن .

فمن تحقق في هذه المعاني فهو الصلب الذي يصح أن يعتمد ضمن القاعدة الصلبة للحركة الإسلامية .

وهذه الفصول مخصصة لبيان بعض هذه المعاني و التذكير بها ، من خلال مواظ ترقق القلب ، وتعين النفس على اكتشاف الطريق الصحيح ، وتونسها إذ هي ماضية فيه ، فإن مدار حركات هذه الحياة متصل بمحور النفس المترددة بين التقوى و الفجور ، إن صلحت : كان لها ظل وارف يهب الأمن لصاحبها ، و متسعاً للآخرين ، في امتداد بمقدار هذا الصلاح . وإن فسدت : كان ثم اضطراب ، و جحيم من القلق .

فمن أجل التنبيه على جمال النفس المؤمنة و الحث على الاقتداء بسمتها : جاء هذا الكتاب .

ويعجبني جداً وصف الشاعر التونسي أحمد المختار الوزير للنفس البرينة ، ورمز لها رمزاً ، جعلها كأنها فراشة ، واقترب كل الاقتراب من إدراك كمال الحقيقة ، تسوقه فطرته إلا أنه لم يمسكها ، وفاته أنه يصف النفس المؤمنة بأبلغ مما وصفها غيره .. إنها تأسره إذ هي :

ساكنة ، في صمتها ، أبين ممّن ينطقُ

هكذا هي السيماء الإيمانية : وداعة ، و تفكر ، و تأمل هادئ ، في إقلال من الكلام ، وبعد عن اللغو ، ولكن تحوطها هيبة مؤثرة ، وجمال بليغ مفصح .

و إن وتّ وقفتها : أعجلها المنطقُ

فالوقفات سنة من سنن الحياة ، و قدر مقدور على البشر ، إلا أنها عند المؤمن لن تكون استرخاءً و غفلةً و تمادياً أبداً ، بل هي تعتري برهة ، ثم تجليها محفّرات كامنة ، من رصيد ذاتي مجموع أو تراث حكمة مركز .

لكن الشياطين تعترض ، تحاول عرقلة هذا المنطق ، توهم صاحبه ، وتضع العوائق الثقيل في صور من الزينة ، لها بهرج ، و تألق ، و بريق ، تغش النفس الهائمة ، ولكن النفس الملهمة ، التي ألهمت إيمانها ، ترى ما وراء ذلك من حقائق تفصح ما خفي من كبرياء مفتعلة ، أو حسد موسوس ، أو صدارة متأخرة ، أو حب زيادة مال زائل . فذلك هو حوم الفراشة حول ومضات صورتها على سطح البحيرة .

أو هي تجربة النفس المؤمنة ..

لكن رأيت خيالها ، ماج به المثبتُ

كأنه النجم يرفُ ، والمياه الأفقُ

فحوّمتُ ، ترنوا ، تودّ لو به تعلقُ

و أوشكتُ ، لو لم تُفّق ، يقضي عليها الغرقُ

لكنها مؤمنة ، هيهات ، لا تستحقُ

بين الضلال والهدى : يبدو لها المفترقُ

نعم هكذا : المفترق واضح ، والاقتراب يفضح الصورة ، ويزيد الوضوح وضوحاً ، ويبين أنّ ما ظنته النفس تألقاً من على بُعد إن هو إلا اهتزاز .

ولكن كيف النجاة مع هذا الاقتراب من موجة عالية تفجأ ، فتترك بكلاً يُثقل ، إن لم يكن الغرق المتلف ؟

من هنا وجبت الموعظة ، وانبغى التحذير ، في كلام كمثل هذه الرقائق ، كي لا تهبط النفس المؤمنة ، إذ آمنت ، بشيء من رذاذ الاقتراب ، بل حياتها في السمو ، و نجاتها في العلو .

إنها قطعة من البيان نادرة أتى بها الشاعر ، و أهداها الناشئة ، لكنها حكمة المنتهين .  
وليس ذلك بمستغرب في عرف الحكمة الإسلامية ، فإنها أبدية الصواب ، ليس لها مرحلة متطورة جاءت من بعد سذاجة و تخلف ، لكنها  
كما تصلح انتهاء : كانت تصلح توسطاً ، وصلحت ابتداء ، مع بدء الحياة البشرية ، وآية ذلك أن التوحيد أوحى إلى آدم عليه السلام ،  
بدء الحياة ، وكان نبياً ، و ألهمت التقوى إلى هابيل ، فكفَّ يده .  
فانظر إشراقة القلب ولطف الإحساس في هذا الرمز المفصح عن طبائع النفس الزكية ، وانظر بمقابلة غلظ حجاب قلب شاعر ملحد يدعو  
إلى البهيمية ..

إنما العيشُ في بهيمة اللذة \*\*\*\*\* لا ما يقوله الفلسفي  
حكمُ كأس المنون أن يتساوى \*\*\*\* في حساها الغبي و الألمي  
و يصير الغبي تحت ثرى الأرض \*\*\*\* كما صار تحتها اللوذعي  
فسل الأرضَ عنهما إن أزال \*\*\*\* الشكَّ و الشبهة السؤالُ الخفي

و واضح هنا أن هذا الملحد أشار إلى أن المعاني الحقة هي قول الفلسفي ، لا قول الواعظ المسلم ، ليتجنب في ظنه ما قد يكون من اتهامه  
بالمروق عن الدين .

قال أبو حيان التوحيدي : سمع أبو سليمان محمد بن طاهر السجستاني المنطقي هذه الأبيات فقال : " هذا النمط مفسدة للشباب الأغرار ،  
الذين ليست لهم بصيرة في الأمور ، وهم عبيد الاحساسات الوافدة بالعبادات الفاسدة ، والاعتقادات الرديئة بتلقين قراء السوء ، وقائل  
هذا قد عاند الدين ، وخلع ربة الحياء ، و افصح عن الفساد ، و صدَّ عن الحكمة ، و قدح بزند الشبهة في النفوس الضعيفة ، والعقول  
الخفيفة .

يا مسكين : أمن أجل أن الصالح و الطالح و العالم و الجاهل صاروا تحت التراب : يتساوون في العقابة ؟  
أما تساوى قوم سافروا من بلد إلى بلد ، فلما بلغوا المقصد : نزل كل واحد في مكان معداً له ، و تلقى بغير ما يُلقى به صاحبه ؟  
أما دخل قوم داراً فأجلس كل واحد منهم في بقعة بعينها وقوبل هذا بشيء و هذا بشيء آخر ؟  
ثم تقول : سل الأرض عنهما ؟؟

قد سألنا و خبرتنا : أنها ضمت أجسادهم و جثثهم و أبدانهم ، لا كفرهم و إيمانهم ، و لا أنسابهم و أحسابهم ، ولا حكمتهم و سفهمهم ،  
ولا طاعتهم و معصيتهم ، ولا أقوالهم و أفعالهم ، ولا يقينهم و شكهم ، ولا زهادتهم و تسبيحهم ، ولا معرفتهم و توحيدهم ، ولا خيرهم و  
شرهم ، ولا جورهم و عدلهم " .

وفي مثل هاتين القطعتين من الشعر ، وفي التعقيب الذي عليهما ، تتضح بعض جوانب المعركة الدائمة بين الإيمان و صور الضلال .  
وفي مثل هذا الكتاب مواضع ، و إخبارات ، و زيادة يقين .....

## 1- تسبيح يَشَدُّ الملك

دعوة تريد أن تستقيم إلى الله .

فعلينا أن تدلف من باب الاستقامة إذن . وبابها المحراب .

وهكذا ، فإن على الدعوة الإسلامية في كل وقت أن تبدأ عملها من المسجد ، فتصلح العقيدة ، وتعلم دعائها أدب التعامل الإسلامي ، وبذلك تسقط تلقائياً كل المقاييس الأخرى في التفاضل ، من جودة الكتابة ، و بلاغة اللسان ، و بهرج الشهادات الجامعية . وإنما جماع الخير في ارتياد المسجد ، وذخيرة المسجد نعم زاد الانطلاق . ولقد أحصاها الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما فقال :

" من أدام الاختلاف إلى المسجد أصاب ثماني خصال :

آية محكمة

و أخاً مستفاداً

و علماً مستطرفاً

و رحمة منتظرة

وكلمة تدله على هدى ، أو تردعه عن ردى . وترك الذنوب حياء ، أو خشية " <sup>1</sup>

" فالمسجد هو في حقيقته موضع الفكرة الواحدة الطاهرة المصححة لكل ما يزيغ به الاجتماع . هو فكر واحد لكل الرؤوس ، ومن ثم فهو حل واحد لكل المشاكل . وكما يشق النهر فتقف الأرض عند شاطئيه لا تتقدم ، يقام المسجد فتقف الأرض بمعانيها الترابية خلف جدرانه لا تدخله " <sup>2</sup>

" فما المسجد بناء ولا مكاناً كغيره من البناء والمكان ، بل هو تصحيح للعالم الذي يموج من حوله و يضطرب ، فإن الحياة أسباب الزيغ والباطل والمنافسة والعداوة والكيد ونحوها ، وهذه كلها يحوها المسجد ، إذ يجمع الناس مراراً في كل يوم على سلامة الصدر ، وبراءة القلب و روحانية النفس ، ولا تدخله إنسانية الإنسان إلا طاهرة منزهة مسبغة على حدود جسمها من أعلاه و أسفله شعار الطهر الذي يسمى الوضوء ، كأنما يغسل الإنسان آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخول المسجد ) <sup>3</sup> . ولقد تفاعل الموفقون مع هذه الأعطيات التي تمنحهم إياها مساجدهم ، فولعوا بها ، و شدوا إليها شداً أنطق الشاعر بالصدق فوصفهم بأنهم :

يمشون نحو بيوت الله إذ سمعوا \*\*\*\* ( الله أكبر ) في شوق وفي جنل

أرواحهم خشعت لله في أدب \*\*\*\* قلوبهم من جلال الله في وجل

نجواهم : ربنا جنناك طائعة \*\*\*\* نفوسنا ، وعصينا خادع الأمل

إذا سجي الليل قاموه و أعينهم \*\*\*\* من خشية الله مثل الجائد الهطل

هم الرجال فلا يلهيهم لعب \*\*\*\* عن الصلاة ، ولا أكذوبة الكسل

ثم ما برح أئمة الموفقين يلحون في التوصية بذلك ، ابتداء بالصدر الأول ، كمثّل عبد الله بن المبارك حين يقول :

اغتنم ركعتين زلفى إلى الله \*\*\*\* إذا كنت فارغاً مستريحاً

و إذا هممت بالنطق بالباطل \*\*\*\* فاجعل مكانه تسبيحاً <sup>4</sup>

و انتهاء بقيادة الدعوة في هذا القرن ، كمثّل الإمام البنا حين يوصي أن :

<sup>1</sup> عيون الأخبار لابن قتيبة 3\3 .

<sup>2</sup> للرافعي في وحي القلم 357-358/1 .

<sup>3</sup> نفس المصدر السابق

<sup>4</sup> طبقات الشافعية للسبكي 286/1

" أيها الأخ العزيز :

أمامك كل يوم لحظة بالغداة ، ولحظة بالعشي ، ولحظة في السحر ، تستطيع أن تسمو فيها كلها بروحك الطهور إلى الملاء ، فتظفر بخير الدنيا والآخرة . وأمامك يوم الجمعة وليلتها تستطيع أن تملأ فيها يديك وقلبك وروحك بالفيض الهائل من رحمة الله على عباده ، وأمامك مواسم الطاعات وأيام العبادات وليالي القربات التي وجهك إليها كتابك الكريم ورسولك العظيم ، فاحرص على أن تكون فيها من الذاكرين لا من الغافلين ، ومن العاملين لا من الخاملين ، واغتنم الوقت ، فالوقت كالسيف ، ودع التسويف فلا أضرب منه " <sup>1</sup>

وكمثل الإمام بديع الزمان سعيد النورسي حين يخاطبك ويقول : " رُكِبَت من القصور والفقر والعجز والاحتياج ، لتنظر بمرصاد قصورك إلى سرادقات كماله سبحانه ، وبمقياس فقرك إلى درجات غناه ورحمته ، وبميزان عجزك إلى قدرته وكبريائه ، ومن تنوع احتياجك إلى أنواع نعمه وإحسانه . فغاية فطرتك هي العبودية .

والعبودية أن تعلن عند باب رحمته قصورك بـ ( أستغفر الله ) و ( سبحان الله ) .

و فقرك بـ ( حسبنا الله ) و بـ ( الحمد لله ) ، و بالسؤال . و عجزك بـ ( لا حول ولا قوة إلا بالله ) و بـ ( الله أكبر ) ، و باستمداد .

فُتْظَر بمراتب عبوديتك جمال ربوبيته " <sup>2</sup>

و كمثل الإمام المودودي - رحمه الله - حين يتحدث عن بعث الرسل عليهم السلام لتحقيق غاية العبودية في الأرض ويقول : " انظروا قليلاً في ما تحرى النبي صلى الله عليه وسلم من التدرج والترتيب للبلوغ إلى هذه الغاية ، فقد قام بدعوة الناس - أولاً وقبل كل شيء - إلى الإيمان ، وأحكمه في قلوبهم ، وأتقنه على أوسع القواعد وأرحبها ، ثم نشأ في الذين آمنوا تعليمه وتربيته طبقاً لمقتضيات هذا الإيمان تدرجاً بالطاعة العملية - أي الإسلام - و الطهارة الخلقية - أي التقوى - و حب الله والولاء له - أي الإحسان . ثم شرع بسعي هؤلاء المؤمنين المخلصين المنظم المتواصل في تحطيم النظام الفاسد للجاهلية القديمة و استبدال نظام صالح به ، قام على القواعد الخلقية و المدنية المقتبسة من القانون الإلهي المنزل من الرب تعالى . ثم لما أصبح هؤلاء الذين آمنوا وليوا دعوته من كل وجهة - بقلوبهم وأذهانهم ونفوسهم وأخلاقهم وأفكارهم وأعمالهم - مسلمين متقين محسنين بالمعنى الحقيقي ، وانصرفوا بأنفسهم إلى ذلك العمل الذي ينبغي لعباد الله المخلصين الأوفياء أن ينصرفوا إليه إذن ، وبعد كل ذلك أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يرشدهم إلى ما يزين حياة المتقين المحسنين من الآداب والعادات المهيبة في الهيئة والملبس والمأكل والمشرب والمعيشة والقيام والجلوس ، وما إلى ذلك من الشؤون الظاهرة . وكأنني به فتن الذهب و نقاه من الأوساخ والأقذار أولاً ، ثم طبع عليه بطابع الدينار ، ودرب المقاتلين أولاً ، ثم كساهم زي القتال . وهذا هو التدرج الصحيح المرضي عند الله في هذا الباب ، كما يبدو لكل من تأمل القرآن والحديث و تبصر فيهما " <sup>3</sup>

• أجب نبيك صلى الله عليه وسلم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

( من تطهر في بيته ، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله ، كانت خطواته أحدهما تحط خطيئة ، والآخرى ترفع درجة ) <sup>4</sup>

وقال : ( من غدا إلى المسجد وراح أعد الله له نزله من الجنة كلما غدا أو راح ) <sup>5</sup>

<sup>1</sup> مجلة الدعوة في دورتها الأولى عدد 8 سنة 1951 م .

<sup>2</sup> المثنوي العربي لبديع الزمان نورسي 283 .

<sup>3</sup> الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية 72 .

<sup>4</sup> صحيح مسلم 131/2 .

<sup>5</sup> صحيح البخاري 157/ 1 .

وقال : ( أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى ، و الذي ينتظر الصلاة حتى يصل إليها مع الإمام أعظم أجراً من الذي يصلي ثم ينام )<sup>1</sup>

و عن جرير رضي الله عنه قال : ( بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقامة الصلاة )<sup>2</sup>

و سألته ابن مسعود : أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : ( الصلاة على وقتها )<sup>3</sup>

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

( ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها و خشوعها و ركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأتي كبيرة ، و كذلك الدهر كله )<sup>4</sup>

وكانت آخر ابتسامته للنبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا : ابتسامته للصلاة ، و ذلك لما كشف ستر الحجرة يوم الإثنين فرأى أبا بكر يومَ الصفوف .

وحدث على صلاة الفجر وصلاة العشاء فقال : ( من صلى البردين دخل الجنة )<sup>5</sup>

وقال - وقد نظر إلى البدر - :

( إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس و قبل غروبها فافعلوا . ثم قرأ : { وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس و قبل الغروب }<sup>6</sup>

وقال : ( الذي تفوته صلاة العصر كأنما وتر أهله و ماله ) أي فقدهما ، وفي لفظ : ( من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله )<sup>7</sup>

فأنت أيها الداعية ما بين ترهيب ينذرك النبي صلى الله عليه وسلم فيه حبوط العمل و ترغيب يشوقك فيه إلى قصور الجنة و رؤية الله فيها ، فأجب ، و إنه لثمن يغري و يطمع و يحرص عليه قبل الكساد ، وكن عند حسن ظن الفضيل ابن عياض فإنه تحدى وقال : ( ما حليت الجنة لأمة ثم لا ترى لها عاشقاً ) ، عاشقاً يخرج من أجلها في البردين ، وقل له : إنني أنا العاشق .

فإن وجدت من نفسك ثقلاً و تكاسلاً فهناك مخاطبة لطيفة يمكن لك أن تخاطب بها نفسك فتقول : هب أنك من العسكريين ، أو من عمال المخازن ، أو الصيادين أو .. ، أما كان يجب عليك التبكير في الاستيقاظ قبل الموظف و الطالب طاعة للنظام العسكري أو تنافساً في طلب الرزق ؟ فالله سبحانه أحق أن يطاع ، و صلاة الفجر أحق أن ينافس فيها . فبمثل هذه المخاطبة لنفسك يحصل الحث لها إن شاء الله إن تراخت واستأنست بالنوم .

و إذا ألممت بذنب أو خطأ فاستدرك بالركوع ، فإن داود عليه السلام لما جاءه الخصم يختصمان في النعاج انتبه و استدرك و وصف الله تعالى انتباهه فقال : { وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راکعاً و أناب \* فغفرنا له ذلك }<sup>8</sup>

فجعل الاستغفار و الركوع طريقة ، يعلم بذلك الدعاة أن يركعوا .

#### • حرص الأولين على الصلاة

وكان السلف الصالح يستحبون الأتاة في كل شيء ، إلا في الصلاة ، فقد قيل للأحنف بن قيس رضي الله عنه : ( إن فيك أناة شديدة )

فقال : ( قد عرفت من نفسي عجلة في صلاتي إذا حضرت حتى أصلها )<sup>9</sup>

وكان المحدث الثقة بشر بن الحسن يقال له : ( الصقي ) ، لأنه كان يلزم الصف الأول في مسجد البصرة خمسين سنة<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> صحيح البخاري 159 / 1 .

<sup>2</sup> صحيح البخاري .

<sup>3</sup> صحيح البخاري .

<sup>4</sup> صحيح مسلم 142/1 .

<sup>5</sup> صحيح البخاري 137/1 .

<sup>6</sup> صحيح البخاري 137/1 .

<sup>7</sup> صحيح البخاري 137/1 .

<sup>8</sup> سورة ص آية 24 .

<sup>9</sup> طبقات ابن سعد 96/7 .

و مثله : إبراهيم بن ميمون المروزي ، أحد الدعاة المحدثين الثقات من أصحاب عطاء بن أبي رباح ، وكانت مهنته الصياغة و طرق الذهب و الفضة . قالوا : ( كان فقيهاً فاضلاً ، من الأمّارين بالمعروف . وقال ابن معين : كان إذا رفع المطرقة فسمع النداء لم يردّها )<sup>2</sup> .

وقيل لكثير بن عبيد الحمصي عن سبب عدم سهوه في الصلاة قط وقد أمّ أهل حمص ستين سنة كاملة ، فقال : " ما دخلت من باب المسجد قط وفي نفسي غير الله " <sup>3</sup>

وقال قاضي قضاة الشام سليمان بن حمزة المقدسي ، وهو من ذرية ابن قدامة صاحب كتاب المغني : " لم أصل الفريضة قط منفرداً إلا مرتين ، وكأني لم أصلهما قط " <sup>4</sup>

مع أنه قارب التسعين .

و الداعية السعيد من يتأمل و يقتدي .

#### • دعوة تتعلم من داود

وكان داود عليه السلام يسبح بالعشيّ و الإشراق ، فسخر الله تعالى الجبال يسبحن معه ، وقال : { إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي و الإشراق } ، فوهبه الله هبة عظيمة ذكرها فقال : { وشددنا ملكه } <sup>5</sup>

و دعوة تدعي أنها إسلامية لا يشد ملكها اليوم و تغلب مالم يسبح رجالها بالعشي و الإشراق .

وإن التواصي بالصلاة لحسنة نفتترفها يزيد الله لنا فيها حسناً ولا بد لنا أن نجعلها كلمة باقية في عقبنّا من أجيال الناشئة الجدد ، فإن لم نفعل ، فإن عقد الدعوة سينفطر – لا سمح الله – انفراطاً ما له من فواق .

<sup>1</sup> تهذيب التهذيب 1/173-447

<sup>2</sup> تهذيب التهذيب 8 / 424 .

<sup>3</sup> المصدر السابق .

<sup>4</sup> ذيل طبقات الحنابلة 2/ 365 .

<sup>5</sup> سورة ص آية 20 .

## 2- الدقائق الغالية

سجود المحراب ، واستغفار الأسحار ، و دموع المناجاة : سيماء يحتكرها المؤمنون .  
ولئن توهم الدنيوي جناته في الدينار ، والنساء ، والقصر المنيف ، فإن :

### • جنة المؤمن في محرابه<sup>1</sup>

ولقد منّ الله على الناس بكثير من المباح الحلال يفند الرهبانية ، ولكن المؤمن له لذة كلما توجه إلى ربه بصفاء روح ، تتضاءل بجانبها لذة المباح ، فيهجّر الكثير منه حذراً من كدر يعكر الصفاء الذي هو فيه .  
جرب ذلك المؤمنون قديماً ، زمن العيش البسيط ، وجربه المؤمنون اليوم ، زمن المدنية المعقدة .  
بل إن الصلاة في يوم هذه المدينة لأظهر في إضفائها السرور ، فبينما يطيل التعقيد على الإنسان حياته الحاضرة ، فيسأم ، ويمل ، و يضجر ، تختصرها الصلاة إلى بضع ساعات فحسب ، فيعيش في اطمئنان ، وراحة بال ، ولئن كان لنظرية آينشتاين في نسبية الوقت نصيب من الصحة ، فإن في الصلاة هذا النصيب ، كما يشرحه مصطفى صادق الرفاعي و يقول :  
" يا لها حكمة أن فرض الله علينا هذه الصلوات بين ساعات وساعات ، لتبقى الروح أبداً إما متصلة أو مهيأة لتتصل ، ولن يعجز أضعف الناس مع روح الدين أن يملك نفسه أنه متوجه بعدها إلى ربه ، فخاف أن يقف بين يديه مخطئاً أو آثماً ، ثم هو إذا ملك نفسه إلى هذه الفريضة ذكر أن بعدها الفريضة الأخرى ، وأنها بضع ساعات كذلك، فلا يزال من عزيمة النفس و طهارتها في عمر على صيغة واحدة لا يتبدل ولا يتغير ، كأنه بجملته – مهما طال – عمل بضع ساعات " <sup>2</sup>  
فطول الحياة نسبي .. هو طويل جداً ، مخيف مظلم للجاهلي .. وهو قصير ، هين منير للمصلي .  
وحياة الجاهلي ركود مستمر . و حياة المصلي حركة ، تزيد صواباً ، أو تستدرك اعوجاجاً .  
وإنها ( الله أكبر ) تنهي هذا الركود ، و تؤسس الحركة ( الله أكبر ) .  
بين ساعات و ساعات من اليوم ترسل الحياة في هذه الكلمة نداءها تهتف : " أيها المؤمن : إن كنت أصبت في الساعات التي مضت ، فاجتهد للساعات التي تتلو . و إن كنت أخطأت فكفر ، و امح ساعة بساعة " <sup>3</sup>  
وأظهر حركة يولدها التكبير : حركة التمييز و الفرقان ، بين أولياء الرحمن و أولياء الشيطان .  
فإنك إن قلت : { اهدنا الصراط المستقيم \* صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين }

<sup>1</sup> شطر لوليد في مجلة التربية الإسلامية 637 / 7 .

<sup>2</sup> وحي القلم 359/1 - 364 .

<sup>3</sup> وحي القلم 359/1 - 364 .



استشعرت في كل ركعة طائفة من هذه الأصناف الثلاثة ، و تخصص كل ركعة لمن ظهر منهم في زمن واحد ، أو بلد واحد ، فتجول في ركعات يومك بلاد الإسلام أجمع ، وتستعرض تاريخ الإسلام أجمع .

ففي ركعة تذكر النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الأطهار رضي الله عنهم مثلاً لمن أنعم الله عليهم ، و تذكر أبا جهل ومسيلمة مثلاً للمغضوب عليهم والضالين .

وفي ركعة أخرى تذكر هوداً وصالحاً - عليهم السلام - مثلاً ممن أنعم الله عليهم ، وعاداً وثمود من الهالكين .

وفي ركعة أخرى تذكر الحسن البصري وابن سيرين وابن المسيب ممن أنعم الله عليهم ، و أهل الردة ، و الجهم بن صفوان ، و الجعد بن درهم من المتخبطين .

وفي أخرى تذكر الإمام أحمد بن حنبل ورهطه من المحدثين الموفقين، وبشراً المريسي وابن دؤاد من الظالمين .

وفي أخرى تذكر ابن تيمية وابن القيم وابن الجوزي من المصلحين ، وأصحاب وحدة الوجود والفناء الموهوم و الشطح والابتداع من المدلسين .

وفي أخرى تذكر الإمام البنا وعودة وسيد ، وثباتهم أمام الطغاة المتجبرين .

وبذلك تعقل صلاتك ، والمرء ليس له من صلاته إلا ما عقل منها ، و تجدد عهدك مع أجيال المؤمنين ، وتنبذ المفسدين ، وتلك هي حركة الإيمان ، فإن الإيمان الحق ما أخذ منك الولاء ، وتركك على المفاصلة .

#### • رجال مدرسة الليل

ولكن تمام التذكر يكون مع الهدوء والسكون .

فمن ثم كانت مدرسة الليل .

وكان ترغيب الله للمؤمنين أن يجددوا سمت الذين {كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون \* وبالأسحار هم يستغفرون} وإذا انتصف الليل ، في القرون الأولى ، كانت أصوات المؤذنين ترتفع تنادي :

يارجال الليل جدوا \*\*\*\* رب صوت لا يرد

ما يقوم الليل إلا \*\*\*\* من له عزم وجد

و إنها حقاً لمدرسة ، فيها وحدها يستطيع رجالها أن يذكوا شعلة حماسهم ، وينشروا النور في الأرجاء التي لفتها ظلمات الجاهلية .

و إنها تجربة إقبال يوجزها فيقول :

نائح والليل ساج سادل \*\*\*\* يهجع الناس ودمعي هائل

تصطلي روعي بحزن وألم \*\*\*\* ورد ( يا قوم ) أنسي في الظلم

أنا كالشمع دموعي غسلي \*\*\*\* في ظلام الليل أذكي شعلي

محفل الناس بنوري يشرق \*\*\*\* أنشر النور و نفسي أحرق<sup>1</sup>

و إن دعوة الإسلام اليوم لا تعتلي حتى يذكي دعائها شعلهم بليل ، ولا تشرق أنوارها فتبدد ظلمات جاهلية القرن العشرين مالم تلهج بـ ( يا قيوم ) .

ما نقول هذا أول مرة ، وإنما هي وصية الإمام البنا حين خاطب الدعاة فقال :

" دقائق الليل غالية ، فلا ترخصوها بالغفلة " <sup>2</sup>

أفيعينا أن نعيد السمات الأول ، أم غرنا اجتهد في التساهل و التسبب و الكسل جديد ؟

إن القول لدى الله لا يبدل ، ولكننا أرخصنا الدقائق الغالية بالغفلة ، فنقل المغرم ولم يجعل الله لنا من أمرنا يسراً .

<sup>1</sup> ديوان الأسرار و الرموز 79 .

<sup>2</sup> مجلة الدعوة في دورتها القديمة عدد 63 .

إن انتصار الدعوة لا يكمن في كثرة الرق المنشور ، بل برجعة نصوح إلى العرف الأول ، ومتى ما صفت القلوب بتوبة ، و وعت هذا الكلام أذن واعية : كانت تحلة الورطة الحاضرة التي سببتها الغفلة المتواصلة .  
ذلك شرط لا بد منه .

و كأن النصر حجب عنا لأننا نادينا من وراء الحجرات ، وجهرنا رافعين أصواتنا نوجب على الله لنا هذا النصر بادلال ، نبيعه و نثبت لنا حقاً عاجلاً في الثمن من دون أن نقدم بين يدي بيعنا همساً في الأسحار ، ولا الدمع المدرار ، وإنما النصر هبة محضة ، يقر الله بها عين من يشاء من رجال مدرسة الليل في الحياة الدنيا ، ولا يلت الآخرين المحصرين من ثمنهم في الآخرة شيئاً ، ويوقع أجرهم عليه .  
إن تعلم الإخلاص ، وفصح الأمل الكاذب الدنيوي أجلى أعطيات مدرسة الليل ، كما يقول وليد ، وذلك ما توجب تربيتنا تركيزه وتعميقه في النفوس . قال ، والحق ما قال :

ياليل قيامك مدرسة \*\*\*\* فيها القرآن يدرسني  
معنى الإخلاص فآلزمه \*\*\*\* نهجاً بالجنة يجلسني  
و يبصرني كيف الدنيا \*\*\*\* بالأمل الكاذب تغمسني  
مثل الحرباء تلونها \*\*\*\* بالإثم تحاول تطمسني  
فأباعدةا و أعاندها \*\*\*\* و أراقبها تتهجسني  
فأشد القلب بخالقه \*\*\*\* والذكر الدائم يحرسني<sup>1</sup>

وأكثر من هذا فإن من يتخرج في مدرسة الليل يؤثر في الأجيال التي بعده إلى ما شاء الله ، والمتخلف عنها يابس قاس تقسو قلوب الناظرين إليه، والدليل عند بشر بن الحارث الحافي منذ القديم ، شاهده وأرشدك إليه، فقال :  
" بحسبك أن قوماً موتى تحيا القلوب بذكرهم ، وأن قوماً أحياء تقسو القلوب برويتهم " .  
فلم كان ذلك أن لم يكن ليل الأولين يقظة ، و ليل غيرهم نوماً ؟ ونهار الأولين جداً ، ونهار الآخرين شهوة ؟

#### • أتسبقك الحمامة ؟

وإنه لقلب رقيق قلب الفقيه الزاهد أبي سهل الصعلوكي ، يظهره تأنيبه لنفسه في قوله :  
أنام على سهو و تبكي الحمام \*\*\*\* وليس لها جرم ومني الجرائم  
كذبت لعمر و الله لو كنت عاقلاً \*\*\*\* لما سبقتني بالبكاء الحمام<sup>2</sup>  
فإن الذنب لا يغسل إلا بدمع ، و الشجاعة تسقى بدموع الليل ، وما عرف تاريخ الإسلام رجاله إلا كذلك ، ولم يقل ابن القيم باطلاً في وصفه لهم بأنهم :

يحيون ليلهم بطاعة ربهم \*\*\*\* بتلاوة ، وتضرع و سؤال  
وعيونهم تجري بفيض دموعهم \*\*\*\* مثل انهمال الوايل الهطال  
في الليل رهبان ، وعند جهادهم \*\*\*\* لعدوهم من أشجع الأبطال  
بوجوههم أثر السجود لربهم \*\*\*\* وبها أشعة نوره المتلالي<sup>3</sup>

و سأل عبد الوهاب عزام الليل عن أروع أسرار ، فأبان جوابه عن إصابة المؤمنين والمذنبين في تحريم إياه و استمع لتحاورها :  
قلت لليل : كم بصدرك سر \*\*\*\* أنبني ما أروع الأسرار ؟  
قال : ما ضاء في ظلامي سر \*\*\*\* كدموع المنيب في الأسحار<sup>4</sup>

<sup>1</sup> أغاني المعركة 38 .

<sup>2</sup> طبقات الشافعية للسبكي 171/3 .

<sup>3</sup> أغنية اللهفان 255 .

<sup>4</sup> ديوان المثاني 35

أفترى المؤمنين إلا مصدق بجواب الليل ، فهو مسارع مستبق ؟

أم ترى أهل البلاغة إلا في إذاعة لما قال ؟ يستملون الناس :

فاز من سبيح والناس هجوع

يدفن الرغبة ما بين الضلوع

و يغشيه سكون و خشوع

ذاكراً لله والدمع هموع

سوف يغدو ذلك الدمع شموع

لتضيء الدرب يوم المحشر سجدة لله عند السحر<sup>1</sup>

و يلتقون المذنبين المخطئين طريق الجنة ، فيستملون المسرف في أخرى أن :

عد إلى الله بقلب خاشع

وادعه ليلاً بطرف دامع

يتولاك بعفو واسع

و يبذل كل تلك الحسنات حسنات أجرها لن ينفدا

كل هذا العفو للعبد المنيب

سابغاً من خالق الكون الرحيب

للذي تاب إليه من قريب<sup>2</sup>

### 3- الابتداء

كل ممارس للعمل التربوي الإسلامي الحركي يلحظ لا بد ظاهرة سقوط البعض وتراجعهم ، فانت ترى داعية سالكا مع السالكين ، و تظن أنه سيثبت ، و لكنه يخيب ظنك أثناء الطريق ، بأن تصدمه رهبة أو رغبة ، أو يستأسر لنداء نفس وهوى ، فيغتر ، و يستولي عليه التيه إدلالاً وامتناناً ، فيصيبه الفتور .

<sup>1</sup> لوليد في مجلة التربية الإسلامية 636/7

<sup>2</sup> لوليد ، في أغاني المعركة 94 .

وربما استعصى تعليل مثل هذه الظاهرة حيناً ، ولكن تفرّسنا في أنفسنا ، و التنقيب عن الفقه التربوي في آثار رجال التربية الأقدمين :  
بدأ يرينا ملامح من التفسير لها ، إن وُعيت حق وعيها لكان فيها بإذن الله ثبات القلوب ، ولو قينا زلل الأقدام بعد ثبوتها .

#### • هو صفاء الابتداء

فأما الشاعر : فيشير إشارة عامة إلى تفسير مثل هذه الظاهرة ، ويقول :

وكل امرئ - والله بالناس عالم - \*\*\*\* له عادة قامت عليها شمانله  
تعودها فيما مضى من شبابه \*\*\*\* كذلك يدعو كل أمر أوائله

والشاهد فيه : الشطر الأخير ، فكل أمر تغلب عليه الصفة التي بدأ بها .

ولكن أساتذة التربية الأوائل قربوا أدنى من الشاعر ، فأتضح وانكشف لنا مذهبهم ، بما فصلوا وعينوا من معنى أوائل الأمور .

منهم من صاغ ذلك في حروف قليلة شاملة ، فقال : " الفترة بعد المجاهدة : من فساد الابتداء " .

ويريد بالفترة : الفتور .

فهو الابتداء إذن ، أي الخطوات الأولى للداعية المسلم في طريق الدعوة الموصل إلى الله ، تكون صحيحة ، فيرتقي بلا فتور ونكوص ،  
وإن فتر فبمقدار لا يتعدى أدنى ما أثر من سنة النبي صلى الله عليه وسلم . وتكون معيبة هذه الخطوات ، فيفتر و ينكص عن  
الارتقاء .

ولكن من أين يعترض الداعية الفتور إذا دفعه مربوه بقوة أول مرة ؟

وكيف لا يتسارع في يومه وغده سير من قطع به أمسه مرحلة نحو غايته ؟

و من أيقن أنه يتبع رسولاً من أولي العزم ، صلى الله عليه وسلم ، فكيف لا يستمد من عزمه ؟

فهي الخطوات الأولى إذن : من جعلناها له متقنة : ثبتت بعد ذلك قدمه ، بما يشاء الله ، ومن تركناه يضطرب فقد أعطينا لشيطنه  
المقص يقطع به حبل ما بيننا وبينه ، يتربص لذلك غفلة .

فإن لم يحصل الشيطان على المقص ، وفاتته المفاجأة ، فإنه يقتنع بأن يمسك طرف الحبل يفلّ خيوطه بتدريج ، ويلقي في نفس من  
اعوجت بدايته الدعاوي ، ويريه قليل خيره وعمله كثيراً ، حتى يستولي عليه الغرور والتناول ، فيرتكس هالكاً .

وهذه العقدة الثانية للشيطان أبصرها آخر من الصالحين ، ووصفها يحذرنا ، فقال : " إنما تتولد الدعاوي من فساد الابتداء ، فمن صحت  
بدايته : صحت نهايته ، ومن فسدت بدايته : فربما هلك " .

بل يهلك في الأغلب ، فإن مبني البداية على التجرد ، فإذا حرم من صفاته في الأول فإن بنيانه يظل مهتزراً مهما شمع عالياً ، بل الخطر  
كل الخطر عليه في الحقيقة إذا شمع ، فإنه يسرع إلى التمايل عند كل نداء ببدعة أو دعوة لمغرم ، لأن من شأن الشيطان أن يزين البدعة  
و يجملها ، و أن من شأنه أن يستغل وقت الحاجة ليغري ، ولئن تردد هذا الرجل الصالح فذكر مجرد الاحتمال و استعمل كلمة ( ربما ) ،  
ولئن تردنا فافتصرنا على ( الأغلب ) ، فإن ثالثاً قد جزم بذلك فقال : " من لم يصح في مبادئ إرادته : لا يسلم في منتهى عاقبته " .  
وما هو بنسيان منه لمشينة الله تهدي و تثبت من يختار ، ولكنه يتحدث عن تجربته في التربية ، ويقدم تقريره عن نتائج تفتيشه  
واستقراء أحوال من عرفهم .

وهكذا تكون عنايتنا بالابتداء خطأ بارزاً ظاهراً في فئنا التربوي الحركي .

#### • وهي النية الحرة

وإنما يعنون بصفاء الابتداء معنيين يتتابعان في توال ، فيتلازمان : النية الصالحة ، والهمة العالية ، حصرهما البحري في شطر مبين و  
سماهما :

نفس تضيء ، وهمة تتوقد<sup>1</sup>

و النفس المضينة كناية عن النفس التي احتوت نية صافية ، فهي تنير بما يكون لها من هذا الصفاء .  
وهي : ( النية الحرة ) التي ذكرها البحتري أيضاً في بيت آخر<sup>2</sup> ، فأحسن الوصف وأجاد ، فكأنها حرة مما يقيد غيرها ، من الأهواء والأطماع والمصالح ، لم يستعبدوا درهم ولا دينار ولا جمال أنثى ، ولم تكن رقيقاً لمنصب أو شهوة .  
فالداعية لا يصدر قط عن شهوة ، ولا طلب مصلحة ، وإنما له في كل حركة وسكنة تطلعات إلى الأجر .  
وكذلك كان الصالحون .

وبهذا الوصف وصف هشام بن عبد الملك ابن عمه عمر بن عبد العزيز الأموي رحمه الله فقال : " ما أحسب عمر خطا خطوة قط إلا وله فيها نية " <sup>3</sup> . ولذلك استطاع عمر في أقل من سنتين تقويم اعوجاج جيلين ، وعلى داعية الإسلام اليوم أن لا يستكبر عظم الانحراف الذي عم بلاد الإسلام ، فإنه - إن قرن كل خطوة بنية مثل الراشد الخامس - سيهزم حزبين بإذن الله في أقل من سنتين .  
و يتعظم الخير في عقود المؤمنين مع الله كلما زاد تجردهم حين العقد ، ولذلك رأت الدنيا عظم الخير في ولاية عمر بن عبد العزيز لما تجرد سليمان بن عبد الملك رحمه الله محض التجرد حين عقد له واستخلفه وقال :  
" لأعقدن عقداً لا يكون للشيطان فيه نصيب " <sup>4</sup> .

بل العمل الصغير بالنية يعظم ، كما يشير عبد الله بن المبارك في قوله : " رُب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية " .  
ومعقود اللسان من الدعاة يصبح بالنية ناثراً من فيه جواهر البلاغة الأسيرة للناس ، كما ينص على ذلك طب عبدالقادر الكيلاني في قوله :  
" كن صحيحاً في السر : تكن فصيحاً في العلانية " <sup>5</sup>

وأما المخلط في نيته فيخلط عليه في أموره وسيرته ، كان ذلك في التاريخ على أهل التخليط حتماً مقضياً ، وهو المعنى الذي كشفه التابعي الجليل مطرّف بن الصحابي الجليل عبد الله بن الشخير العامري في قوله : " صلاح العمل بصلاح القلب ، وصلاح القلب بصلاح النية ، ومن صفا : صُفي له . ومن خلط : خلط عليه " .  
ونتيجة التخليط أن يضطرب القلب في فوضى تعدم السكينة ، و " إن الخطأ الأكبر أن تنظم الحياة من حولك ، وتترك الفوضى في قلبك " ، كما يقول مصطفى صادق الرفاعي<sup>6</sup> .

فاعرف سياسة النفس هذه أيها الداعية ، وأتقن ولوجها قبل ولوج سياسة الحكم ، فإنه : " فرض على العامل أن يعرف النية من الأمانة " ، كما قيل .

فهناك نية وهناك أمانة ، والأمر كما قال يحيى بن معاذ : " لا يزال العبد مقروناً بالتواني ، مادام مقيماً على وعد الأمانى " <sup>7</sup> .  
وما اختار أحد الأمانى تقوده إلا كان أثقل ما يكون خطأ ، ووجد ثم السراب الخادع ، و غدم الماء وقت العطش ، وأما المضيء النفس ، ومن لا أمانة له من الدعاة ، فإنك تجده سباقاً إلى كل خير أبداً ، وتجده على ري دوماً فإنه إن كان ذا قوة : استقى لنفسه ، أو استسقى ، فيجيبه الله بهطل من السماء ، وإن كان مستضعفاً : وجد وريثاً لموسى عليه السلام ، يسقي له ويزاحم الرعاع .

• وهو قدم الهول

<sup>1</sup> ديوان البحتري 29/1 .

<sup>2</sup> ديوان البحتري 40/6 .

<sup>3</sup> سيرة عمر لابن عبد الحكم 29/30 .

<sup>4</sup> سيرة عمر لابن عبد الحكم 29/30 .

<sup>5</sup> الفتح الرباني 64 .

<sup>6</sup> وحي القلم 44/2 .

<sup>7</sup> تاريخ بغداد 184/5 .

والهمة قرينة النية ، فلا شيء بعد النية قبلها ، وكل الاتقان بعدها ، ومن أكسبها من المربين تلاميذه عند خطواتهم الأولى فقد ضمن لهم الاستمرار إن شاء الله ، وقد قيل : " همتك احفظها ، فإن الهمة مقدمة الأشياء ، فمن صلحت له همته وصدق فيها : صلح له ما وراء ذلك من الأعمال " .

ويمثل لها ابن القيم بمثل لطيف ، فيقول : " مثل القلب مثل الطائر ، كلما علا : بعد عن الآفات ، وكلما نزل : احتوشته الآفات " <sup>1</sup> . فكما أن الاستعلاء بالهمة يبقي القلب نظيفاً بريئاً من المعنى الخسيس مشغولاً بالعظام ، فإنه أيضاً يبقي القلب الآفات والأمراض وسهام الشيطان ، كما تقي نهضة الجناحين الطائر سهام الصياد ، و مهمة المربي المسلم : أن يعلم الناشئ هذه النهضة العالية في مبادئ محاولاته .

و نهضة الجناحين هي بدورها كناية عن النفس التي احتوت تصميماً على حمل أثقال الدعوة إلى الله ، فإن الجديد في سلك الدعوة إن فهم الدعوة في الأول مجرد تزكية نفس ، و صحبة أخيار ، وبث أشواق ، وفرصة تكافل ، فإنه يحجم عن إنكار المنكر على الظالم ، و يستعصي عليه فهم معادلة ابن يزدانيار في الفراسة ، والتي فهمها من قبله الرجال ، ويرجع عن الزحف يوم الزحف و قائمة أعداره تحت أحد إبطيه ، أولها : أنه لم يُنذر بمثل هذا من قبل ، ولا يحتوي هذا الشرط عقده ، ولذلك حرص رجال التربية على أن تكون أول خطوة للسالك : خطوة هَوَل ، كخطوة السبعين من قدماء الأنصار ساعةبيعة العقبة حين أخذوا على أنفسهم أن يمنعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يمنعون منه نساءهم وأبنائهم وأموالهم .

فهو هول الجهاد ، أو هول الإنكار ، وليس ما في التجافي عن دار الغرور ذات الشهوات و التقليل من الأموال و الملذات بأقل من هذين الهولين .

فإن أحب الدنيا فإتما يحبها كحب محمد بن أحمد المعروف بابن رزقويه ، ذلك الحب الذي يكشف عن همة عالية وراعه ، والذي ترجمه مخاطباً تلامذته :

" والله ما أحب الحياة في الدنيا لكسب ولا تجارة ، ولكن لذكر الله ، ولقراءتي عليكم الحديث " <sup>2</sup>

وإنما ذكر الحديث كمثال لجنس الصالحات التي يجب على الداعية أن يحب الدنيا لأجلها لا لغيرها .

وعن أجيال السلف أخذ جيل المجددين في هذا القرن فقه الهمة ففهم الإمام حسن البنا أن الداعية الهمام : " يبذل كل ماله ، وكل دمه ، وكل نفسه ، في سبيل عقيدته التي آمن بها وعاش من أجلها " <sup>3</sup> .

<sup>1</sup> الجواب الكافي 70 .

<sup>2</sup> تاريخ بغداد 352 / 1 .

<sup>3</sup> مذكرات الدعوة و الداعية 233 .

#### 4- نحو أفراح الآخرة

لقد وصف الصالحون لنا سمات الابتداء لنأخذ بأحسنها ، و لنن كان بعضنا ينسى ، في ظروف غفلة ، فإن الله خير الغافرين ، وليس له أن يقعد بعد الذكر مع القوم الغافلين ، وإن عنده لخير من فقه الأولين تعينه على سلوك سبل الرشد الفجاج الواضحة الموصلة إلى رب العالمين .

وإن تقوى القلوب في الحقيقة هي التي تقود تقوى الجوارح ، كما قال تعالى : { ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب } . وقال : { لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم } . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : ( التقوى ها هنا ) ، وأشار إلى صدره .

" فالكيس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة وتجريد القصد وصحة النية ، مع العمل القليل ، أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك ، مع التعب الكثير والسفر الشاق ، فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتنظف السير ، والتقدم والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة ، فيتقدم صاحب الهمة ، مع سكونه ، صاحب العمل الكثير بمراحل <sup>1</sup> )

#### • استعلاء .. ثمنه التعب

وإنما أرشدك الصالحون طريق الاستعلاء والسيادة بالنية والهمة ، وعلبك تعبهم وركوب مصاعبه ، وذلك : إن السيادة نهج واضح الوعر .

وليس أمرها بالهين ، وإنما هي قول ثقيل ألقاه الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى أتباعه : يجب أن يسودوا . ويمكن لهذا الثقل أن تخففه النية ، فيتعاظم تأثير التعب القليل بصلاحها ، كما أشار الذين وصفوا الابتداء ، ولكن هداية القلب ، وإضاءة النفس ، ونهضات الهمة ، إنما يذكرهن الجد ، فمن أرادهن دائمات : أدام جده ، وهو معنى قولهم : ( استجلب نور القلب بدوام الجد )

فلا بد من الجد الدائم ، لأن خواطر الفكر دائمة ، وحركات الجوارح متصلة ، فإن لم يكن الجد معهن دائماً : شغلن ما هو دونه أو ضده ، فيكون الهبوط من بعد الاستعلاء ، يحذر إياه عبد الوهاب عزام ، وينبهك أن :  
" الفكر لا يحد واللسان لا يصمت ، والجوارح لا تسكن . فإن لم تشغلها بالعظام : شغلته الصغائر .

وإن لم تُعملها في الخير : عملت في الشر .

إن في النفوس ركناً إلى اللذذ والهين ، و نفوراً عن المكروه والشاق ، فرفع نفسك ما استطعت إلى النافع الشاق ، ورضها وسسها على المكروه الأحسن ، حتى تألف جلائل الأمور وتطمح إلى معاليها ، وحتى تنفر عن كل دنية و ترباً عن كل صغيرة .  
علمها التحليق : تكره الإسفاف . عرفها العز : تنفر من الذل .

وأدقها اللذات الروحية العظيمة : تحقر اللذات الحسية الصغيرة " <sup>2</sup>

#### • و أنت صاحب إيمان :

" وحقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان ، لأنه يجاهد نفسه كذلك في أثناء مجاهدته للناس ، وتفتح له في الإيمان آفاق لم تكن لتتفتح له أبداً وهو قاعد آمن ساكن ، وتتبين له حقائق في الناس وفي الحياة لم تكن لتتبين له أبداً بغير هذه الوسيلة ، ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصورات ، و بعباداته وطباعه وانفعالاته واستجاباته ، ما لم يكن ليبلغه أبداً بدون هذه التجربة الشاقة العسيرة .

وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى : { ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض } ، وأول ما تفسد : فساد النفوس بالركود الذي تأسن معه الروح ، وتسترخي معه الهمة ، و يتلفها الرخاء و الطراوة ، ثم تأسن الحياة كلها بالركود ، أو بالحركة في مجال الشهوات وحدها ، كما يقع للأمم حين تبلى بالرخاء " <sup>3</sup>

#### • وأتعب الناس من جلت مطالبه

#### • وأنت حر كريم

و " لا يرمي الحر الكريم إلا أن يبلغ الأمد الأبعد في كل ما يحاوله فلا يألو أن يبذل جهده إلى غاية الطاقة و مبلغ القدرة ، مستمداً قوة من بعد قوة ، محققاً السحر القادر الذي في نفسه ، متفياً منه وسائل الإعجاز في أعماله ، مرسلأ في نبوغه من توهج دمه أضواء كأضواء النجم تثبت لكل ذي عينين إنه النجم لا شيء آخر " <sup>4</sup>

<sup>1</sup> الفوائد لابن القيم 140 .

<sup>2</sup> مجلة المسلمون 595/1 .

<sup>3</sup> هذا الدين لسيد قطب 10 .

<sup>4</sup> وحي القلم للرفاعي 65/1 .



• و أنت صاحب غاية :

و إنما يوصل الداعية إلى غايتها : " شغفه بدعوته و إيمانه ، و اقتناعه بها ، و تفانيه فيها ، و انقطاعه إليها بجميع مواهبه وطاقاته ووسائله ، وذلك هو الشرط الأساسي والسمة الرئيسية للدعاة " <sup>1</sup>

• و أنت طالب نفوذ إلى الله .

و " طالب النفوذ إلى الله والدار الآخرة ، بل وإلى كل علم وصناعة ورناسة ، بحيث يكون رأساً في ذلك مقتدى به فيه ، يحتاج أن يكون شجاعاً مقداماً ، حاكماً على وهمه ، غير مقهور تحت سلطان تخيله ، زاهداً في كل ما سوى مطلوبه ، عاشقاً لما توجه إليه ، عارفاً بطريق الوصول إليه ، والطرق القواطع عنه ، مقدم الهممة ، ثابت الجأش ، لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم ولا عذل عاذل ، كثير السكون ، دائم الفكر ، غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم ، قائماً بما يحتاج إليه من أسباب معاونته ، لا تستنفره المعارضات ، شعاره الصبر ، وراحته التعب " <sup>2</sup>

• محنة الفراغ و الغفلة

و يجتمع هذا الكلام الحق ليقدر أن محنة الداعية المسلم لا تكمن في معارضة الكفر له ، ولا في سجنه ، و تعذيبه و تجويعه ، بقدر ما تكمن في استرخاء همته و التذاده بالراحة .

ما محنة الداعية إلا لهوه و غفلته و جلوسه فارغاً ، وربما زاد فيفتتح له باب من اللغو بعد اللهو .

تلك هي المحنة الحقيقية التي تفتعلها الجاهلية للدعاة بما تعرض للناس من مغريات و أسباب لهو تلفت أنظارهم إليها .

وما انتصار الداعية إلا في أن تعاف نفسه ما لا يؤثر في تقدم دعوته .

إن غفلة الداعية محنة لأنها صرفته عن نصر ممكن يحققه له الجد والعمل الدائب ، وعن أجر وثواب أخروي ليس له من مقدمة إلا هذا الجد .

وسيطر اسمنا مكتوباً في سجل الغافلين الفارغين ما دمنا لا نعطي للدعوة إلا فضول أوقاتنا ، وما دمنا لا نشغفها حباً ولا نتخذها حرفة .

إن الداعية المسلم لا يملك نفسه حتى يسوغ له أن يمنح نفسه إجازة ، وإنما هو - كما شبهه بعض الأفاضل - ( وقف لله تعالى ) .

تماماً كنسخة من كتاب نافع حين توقف لله تعالى وتوضع في مسجد من مساجد الله ، فكل داعية موقوف لله ، في جزء من أجزاء دعوة الله .

و إن فضول الأوقات ليست قليلة و محدودة فحسب ، و إنما هي أردأ ساعات اليوم ، حيث يكون فيها الذهن و الجسم متعبين أشد التعب .

و ما تجاوز الأستاذ المودودي - رحمه الله - أعراف أجيال الدعاة حين صارحنا في تذكروته القيمة وقال :

" إنه من الواجب أن تكون في قلوبكم نارا متقدة تكون في ضرامها على الأقل مثل النار التي تنقد في قلب أحدكم عندما يجد ابناً له مريضاً ولا تدعه حتى تجره إلى الطبيب ، أو عندما لا يجد في بيته شيئاً يسد به رمق حياة أولاده ، ولا تزال تقلقه و تضطره إلى بذل الجهد والسعي .

إنه من الواجب أن تكون في صدوركم عاطفة صادقة تشغلكم في كل حين من أحيانكم بالسعي في سبيل غايتكم و تعمر قلوبكم بالطمأنينة ، و تكسب لعقولكم الإخلاص والتجرد والحنيفية وتركز عليها جهودكم وأفكاركم بحيث أن شؤونكم الشخصية و قضاياكم العائلية إذا استرعت اهتمامكم فلا تلتفتون إليها إلا مكرهين . و عليكم بالسعي أن لا تنفقوا لمصالحكم وشؤونكم الشخصية إلا أقل ما يمكن من أوقاتكم و جهودكم ، فتكون معظمها منصرفة لما اتخذتم لأنفسكم من الغاية في الحياة وهذه العاطفة مالم تكن راسخة في أذهانكم ، ملتحمة مع أرواحكم و دمائكم ، آخذة عليكم البابكم وأفكاركم ، فإنكم لا تقدرون أن تحركوا ساكناً بمجرد أقوالكم " <sup>3</sup>

<sup>1</sup> للندوي في مقدمته لمذكرات الدعوة و الداعية .

<sup>2</sup> لابن القيم في الفوائد 19 .

<sup>3</sup> تذكرة دعاة الإسلام 57 .

و لم يتجاوز حين كرر و قال ثانية أن : " اسمحوا لي أن أقول لكم أنكم إذا خطوتم على طريق هذه الدعوة بعاطفة أبرد من تلك العاطفة القلبية التي تجدونها في قلوبكم نحو أزواجكم وأبنائكم وآبائكم وأمهاتكم فإنكم لا بد أن تبتوءوا بالفشل الذريع ، بفشل لا تتجراً بعده أجيالنا القادمة على أن تتفكر في القيام بحركة مثل هذه إلى مدة غير وجيزة من الزمان ، عليكم أن تستعرضوا قوتكم القلبية والأخلاقية قبل أن تهموا بالخطوات الكبيرة <sup>1</sup> إن من يطالب الآن بإلغاء الراحة فإنه إنما يستند إلى مادة واضحة في قانون الدعوة والدعاة سنها عمر الفاروق رضي الله عنه ، تنطق بصراحة أن :

( الراحة للرجال : غفلة ) <sup>2</sup>

وجدها إمام المحدثين شعبة بن الحجاج البصري فقال : " لا تقعدوا فراغاً فإن الموت يطلبكم " . ذلك أن من أراد الراحة و السكون فإن الموت و القبر يزودانه منهما حتى يشبع . وكأننا – والله – قد أسرفنا في الغفلة ، ولا بد من عزيمة نفطم بها نفوسنا عن اللهو .

إننا حين نشبت جواز التمتع بالمباحات فلكي يعلم من مخاطبه أننا لا ندعو إلى مثل الطريقة المبتدعة التي كان عليها بعض الزهاد من الجوع والعري والرهبانية ، وإلا فلا يزال جواب ابن الجوزي يصلح جواباً لنا حين سألته سائل : " أيجوز أن أفسح لنفسي في مباح الملاهي ؟ " فقال : " عند نفسك من الغفلة ما يكفيها " <sup>3</sup>

فإن اعترض معترض : أتيناها بمثل كلام ابن القيم حيث يقول: " لا بد من سنة الغفلة ، ورقاد الغفلة ، ولكن كن خفيف النوم " <sup>4</sup> فنحن لا ننكر ما في المعنى الحرفي لإطلاقات من عاب الراحة من إرهاق ، وإنما نريد – كما أرادوا – تقليلها إلى أدنى ما يكفي الجسم ، كل حسب صحته و ظروفه ، خاصة وأن المؤمن في هذا الزمن أشد حاجة للانتباه و معالجة قلبه وتفتيشه مما كان عليه المسلمون في العصور الماضية ، ذلك أنهم كانوا يعيشون في محيط إسلامي تسوده الفضائل ، ويسوده التواصي بالحق ، والرذائل تجهد نفسها في التستر والتواري عن أعين العلماء و سيوف الأمراء ، أما الآن فإن المدنية الحديثة جعلت كفر جميع مذاهب الكفار مسموعاً مبصراً بواسطة الإذاعات والتلفزة والصحف ، وجعلت إلقاءات جميع أجناس الشياطين قريبة من القلوب ، وبذلك زاد احتمال تأثر المؤمن من حيث لا يريد ولا يشعر بهذا المسموع والمنظور ، فضلاً عن ارتفاع حكم الإسلام عن الأرض الإسلامية التي يعيش فيها ، فوجب عليه شيء من المجاهدة والمراقبة لوقته أكثر مما كان يجب على السلف .

و ما أصدق تصوير إمام تركيا بديع الزمان سعيد النورسي – رحمه الله – لهذه الحقيقة حين يقول : " إن هذه المدنية السفهية ، المصيرة للأرض كبلدة واحدة ، يتعارف أهلها و يتناجون بالإثم وما لا يعني ، بالجراند صباحاً و مساء ، غلظ بسببها و تكاثف بملاهيها حجاب الغفلة ، بحيث لا يخرق إلا بصرف همة عظيمة " . فكن خفيف النوم أيها الداعية المسلم لتحصل لك هذه الهمة العظيمة .

و انته من رقدة الغفلة \*\*\*\* فالعمر قليل

و اطرح سوف وحتى \*\*\*\* فهما داء دخيل

وعبر الصالحون عن هذه المعاني أحياناً بلفظ آخر سموه : حفظ الوقت ، أو مراعاة الوقت .

فيرى الإمام البنا أن : " من عرف حق الوقت فقد أدرك قيمة الحياة فالوقت هو الحياة " .

أو كما قال في خطبة المؤتمر الخامس : " إنما الوقت هو الحياة " يخالف بذلك قول الماديين : الوقت من ذهب . وكان – رحمه الله – يحب أن يتجاوز الداعية معرفة حق وقت يومه إلى التخطيط لصرف وقت غده ، فينوي لكل ساعة نوع خير ، و : " ينام على أفضل العزائم " <sup>1</sup>

<sup>1</sup> تذكرة دعاة الإسلام 59 .

<sup>2</sup> أدب الدنيا و الدين للماوردي 82 .

<sup>3</sup> ذيل طبقات الحنابلة 422 / 1 .

<sup>4</sup> الفوائد 41 .

و ترك الفراغ ، والاستيقاظ من رقدة الغفلة ، معناهما التعب ، ثم التعب ، و استفرغ الوُسع في العمل لله . نطق بذلك الإمام الشافعي ، ونفى أن تصح مروعة داعية يطلب الراحة ، فقال :

" طلب الراحة في الدنيا لا يصح لأهل المروعات ، فإن أحدهم لم يزل تعباً في كل زمان " . ولما سئل أحد الزهاد عن سبيل المسلم ليكون من صفوة الله ، قال : " إذا خلع الراحة وأعطى المجهود في الطاعة " <sup>2</sup> .

فالداعية الصادق يخلع الراحة ، ويعود لا يعرفها ، وتصبح عنده ذكريات شبابه الأول وصباه فحسب .

وأما الإمام أحمد فقد ترجمت سيرته في المحنة هذه الأوصاف عملاً ، حتى قال لابنه : " يا بني : لقد أعطيت المجهود من نفسي " <sup>3</sup> يعني في المحنة ، وبذلك حدّاً لا يسع الداعية النقصان فيه ولا التخلف عنه ، فعلى الداعية بذل المجهود من نفسه ، و استفرغ كل طاقته في خدمة الدعوة .

طريق رسمه الإمام أحمد لا يسعنا أن نحيد عنه ، ومقدار قدره للدعاة ليس لهم أن يقفوا دونه نصيباً مفروضاً ، هو : المجهود من النفس ، وعلامته حين المحن : الصبر على الأذى حتى الموت . وعلامته في حياتك اليومية : أنك إن جئت إلى فراشك ليلاً لتنام وجدت لركبتك أنيناً ، و في عضلاتك تشنّجاً ، لكثرة ما تحركت في نهارك .

وإنما نسميه التعب ، والأنين ، و التشنّج ، لغرض تفهيم الداعية الجديد ، لأن هذه الاصطلاحات هي لغة أهله و عموم الناس الذين تركهم من قريب ، و أما في لغة الدعاة فهو محض اللهو الذي تهفو إليه نفوسهم ، و عنهم نقله الباحث في وصفه لممدوحه حين يقول :

قلب يطل على أفكاره ، ويدّ \*\*\*\* تمضي الأمور ، ونفس لهوها التعب <sup>4</sup>

ومن لا يعلم موازين المؤمنين يظن ذلك حرماناً من لذة ، وخداع أفاظ ، و غواية اتباع الشعراء ، ولكن من أوتي علم الكتاب يعرف أن الراحة الحقيقية : راحة الآخرة ، لا راحة الحياة الدنيا ، ولذلك لما قيل للإمام أحمد : " متى يجد العبد طعم الراحة ؟ " قال :

" عند أول قدم يضعها في الجنة " <sup>5</sup>

و لما تعجب غافل من باذل وقال له : " إلى كم تتعب نفسك ؟ "

كان جواب الباذل سريعاً حاسماً : " راحتها أريد " <sup>6</sup>

" فالطالب الصادق في طلبه كلما خرب شيء من ذاته : جعله عمارة لقلبه وروحه . وكلما نقص شيء من دنياه : جعله زيادة في آخرته . وكلما منع شيئاً من لذات دنياه جعله زيادة في لذات آخرته . وكلما ناله هم أو حزن أو غم : جعله في أفراح آخرته " <sup>7</sup> و من لمح فجر الأجر : هان عليه ظلام التكليف ، كما يقول ابن الجوزي .

و لعمر الله ما هو بظلام ، ولكنها لغة اضطر لها كما اضطررنا ليعقل مراده الراقدون .

## 5- الأخوة شعار دعوتنا

التسبيح في دقائق الأسرار الغالية ، والتعامل الأخوي الإيماني : ركيزتان متلازمتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة ، وعينان نضاختان ، تسكبان خيراً للدعاة لا ينضب . " إنهما ركيزتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة ، وتؤدي بهما دورها الشاق العظيم ، فإذا انهارت واحدة منهما لم تكن هناك جماعة مسلمة ، ولم يكن هنالك دور لها تؤديه " <sup>8</sup>

<sup>1</sup> مجموعة رسائل الإمام 498 .

<sup>2</sup> تاريخ بغداد 75/3 .

<sup>3</sup> مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي 339 .

<sup>4</sup> ديوان البحري 1/ 172 .

<sup>5</sup> طبقات الحنابلة 293/1 .

<sup>6</sup> الفوائد لابن القيم 42 .

<sup>7</sup> الفوائد لابن القيم 189 .

<sup>8</sup> الظلال 32- 22/4 .

## • التقوى أولاً

وإنما التسبيح عنوان الإيمان وإسلام النفس لله تعالى ، والإيمان عنوان التصور الموزون ، وضمانة الثبات أمام مخاطر الطريق .  
 " ركيزة الإيمان والتقوى أولاً .. التقوى التي تبلغ أن توفي بحق الله الجليل .. التقوى الدائمة البقطة التي لا تغفل ولا تفتر لحظة من لحظات العمر حتى يبلغ الكتاب أجله : { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ ثقاته } .. اتقوا الله - كما يحق له أن يُتقى - وهي هكذا بدون تحديد تدع القلب مجتهداً في بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها . وكلما أوغل القلب في هذا الطريق تكشفت له آفاق ، وجدت له أشواق . وكلما اقترب بتقواه من الله ، تيقظ شوقه إلى مقام أرفع مما بلغ وإلى مرتبة وراء ما ارتقى ، وتطلع إلى المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فلا ينام !

{ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون } والموت غيب لا يدري إنسان متى يدركه ، فمن أراد ألا يموت إلا مسلماً فسبيله أن يكون منذ اللحظة مسلماً . وذكر الإسلام بعد التقوى يشي بمعناه الواسع : الاستسلام . الاستسلام لله ، طاعة له ، واتباعاً لمنهجه ، واحتكاماً إلى كتابه . وهو المعنى الذي تقرره سورة آل عمران كلها في كل موضع منها .

هذه هي الركيزة الأولى التي تقوم عليها الجماعة المسلمة لتحقيق و جودها وتؤدي دروها ، إذ أنه بدون هذه الركيزة يكون كل تجمع تجمعاً جاهلياً ، ولا يكون هناك منهج الله تتجمع عليه أمة ، إنما تكون هناك مناهج جاهلية ، ولا تكون هناك قيادة راشدة في الأرض للبشرية ، إنما تكون القيادة للجاهلية " <sup>1</sup>

" لا بد من الإيمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم ، والتعريف الصحيح للمعروف والمنكر ، فإن اصطلاح الجماعة وحده لا يكفي ، فقد يعم الفساد حتى تضطرب الموازين وتختل ، ولا بد من الرجوع إلى تصور ثابت للخير والشر ، وللفضيلة والرذيلة ، والمعروف والمنكر ، يستند إلى قاعدة أخرى غير اصطلاح الناس في جيل من الأجيال .

وهذا ما يحققه الإيمان بإقامة تصور صحيح للوجود وعلاقته بخالقه ، وللإنسان وغاية وجوده ومركزه الحقيقي في هذا الكون .. ومن هذا التصور العام تنبثق القواعد الأخلاقية ، ومن الباعث على إرضاء الله وتوقي غضبه يندفع الناس لتحقيق هذه القواعد ، ومن سلطان شريعته في المجتمع تقوم الحراسة على هذه القواعد كذلك . ثم لا بد من الإيمان أيضاً ليملك الدعاة إلى الخير ، الأمور بالمعروف ، والناهون عن المنكر ، أن يمشوا في هذا الطريق الشاق ، و يحتملوا تكاليفه ، وهم يواجهون طاغوت الشر في عنفوانه وجبروته ، ويواجهون طاغوت الشهوة في عرامتها وشدتها ، ويواجهون هبوط الأرواح ، وكلل العزائم ، وثقل المطامع ... و زادهم هو الإيمان ، وعدتهم هي الإيمان ، وسندهم هو الله .. وكل زاد سوى زاد الإيمان ينفد ، وكل عدة سوى عدة الإيمان تفل ، وكل سند غير سند الله ينهار " <sup>2</sup>

و يحدثنا إقبال عما فعله هذا الإيمان من توحيد التصور الذي انتبه إليه سيد قطب فيقول :

وَحَدَّ الرئي لنا و الفكرة \*\*\*\* كسَهَام جمعتها جعبة

نحن فكر و خيال واحد \*\*\*\* ورجاء و مآل واحد <sup>3</sup>

فهذا أقصى ما يكون من الاتحاد ، بأدنى ما يكون من الوسائل ، فالروية واحدة ، والفكر والخيال واحد ، والرجاء واحد ، والمصير واحد ، كل ذلك يعطيه الإيمان ، وما أسهل تناوش من ملك القلب لهذا الإيمان البسيط ، ذي الأعطيات الثمينة .

## • ونثنى بالأخوة ..

<sup>1</sup> الظلال 4/ 22- 32 .

<sup>2</sup> الظلال 4/ 22- 32 .

<sup>3</sup> ديوان الأسرار و الرموز 89 .

" أما الركيزة الثانية فهي ركيزة الأخوة .. الأخوة في الله على منهج الله ، لتحقيق منهج الله : { واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون } ..

فهي أخوة إذن تنبثق من التقوى والإسلام .. من الركيزة الأولى .. أساسها الاعتصام بحبل الله - أي عهده ونهجه ودينه - وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر ، وعلى أي هدف آخر ، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة ! { واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا } هذه الأخوة المعتمدة بحبل الله نعمة يمتن الله بها على الجماعة المسلمة الأولى ، وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائماً " <sup>1</sup>

" وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى - في المدينة - على هاتين الركيزتين .. على الإيمان بالله : ذلك الإيمان المنبثق من معرفة الله سبحانه ، وتمثل صفاته في الضمان ، و تقواه و مراقبته ، و اليقظة و الحساسية إلى حد غير معهود إلا في الندرة من الأحوال . وعلى الحب : الحب الفياض الرائق . والود : الود العذب الجميل . و التكافل : التكافل الجاد العميق .. و بلغت تلك الجماعة في ذلك كله مبلغاً ، لولا أنه وقع ، لعد من أحلام الحالمين ! وقصة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصة من عالم الحقيقة ، ولكنها في طبيعتها أقرب إلى الرؤى الحالمية ! وهي قصة وقعت في هذه الأرض ، ولكنها في طبيعتها من عالم الخلد و الجنان ! وعلى مثل ذلك الإيمان ، ومثل هذه الأخوة ، يقوم منهج الله في الأرض في كل زمان " <sup>2</sup>

ومن هنا كانت هذه العودة إلى محاولة تأكيد معنى الأخوة كجزء من إحياء فقه الدعوة ، فإن الأخوة شرعية دعوتنا وشعارها واسمها ، وميثاقها الذي واثقنا به ، وكتابها الذي كتبته على نفسها ، وما زالت تأتي دعوتنا المباركة بصائر جديدة من تجاربها المتكررة تسرع بها إلى ابتغاء كل وسيلة إلى هذه الفضائل وتجميع أنصارها إلى الله على التحاب ، والتكافل ، و التسامح ، و مكملات هذه الرواسي الشامخات ، وكمالها أن ترى من بعد وحدة الرؤية و الفكر و الخيال و الرجاء و المصير : وحدة القلب و الروح ، بل و وحدة اللفظ أيضاً ، فلا تكون هناك إلا صيحات واحدة . بحروف متقاربة ، تعبر عن مفهوم واحد ، كما أراد إقبال حين يقول :

نحن من نعمانه حلف إخاء \*\*\*\* قلبنا و الروح و اللفظ سواء <sup>3</sup>

فلم يقتنع بوحدة القلب ، حتى توحدت الألفاظ .

## • عقد الأخوة

و يظل هذا الاتحاد يتنامى حتى يكون عقداً واجب الوفاء ، فقد تكلم ابن تيمية عن ( عقد الأخوة ) هذا وبين أن الحقوق التي ينشؤها إذا كانت من جنس ما أقره النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديثه لكل مؤمن على المؤمنين فإنما هي : " حقوق واجبة بنفس الإيمان ، والتزامها بمنزلة التزام الصلاة والزكاة والصيام والحج ، والمعاهدة عليها كالمعاهدة على ما أوجب الله ورسوله ، وهذه ثابتة لكل مؤمن على كل مؤمن وإن لم يحصل بينهما عقد مؤاخاة " <sup>4</sup>

فيأتي العقد يؤكد هذا ، ولم يحصل خلاف إلا في التوارث عند عدم وجود القرابة كما كان الأنصار و المهاجرون يتوارثون بالتأخي الذي أقره النبي صلى الله عليه وسلم بينهم أول مقدمه المدينة ، فقد قال أكثر الفقهاء بنسخ ذلك ، وأجازه أبو حنيفة و أحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه .

إن هذا العقد الأخوي يزيد الواجب الإيماني ثبوتاً ، وما نراه إلا كبيعة سلمة بن الأكوع الثانية رضي الله عنه تؤكد بيعته الأولى حين كانتا في ساعة واحدة يوم الحديبية تحت الشجرة ، كما جاء عنه في صحيح البخاري في قوله : ( بايعنا النبي صلى الله عليه وسلم تحت

<sup>1</sup> الظلال 23/4 - 28 .

<sup>2</sup> الظلال 23 / 4 - 28 .

<sup>3</sup> ديوان الأسرار و الرموز 89 .

<sup>4</sup> مجموع فتاوي ابن تيمية 101/11 .

الشجرة ، فقال لي : يا سلمة : ألا تباع ؟ قلت : يا رسول الله قد بايعت في الأول . قال : وفي الثاني <sup>1</sup> ، فكذاك المسلمون : أوجب الإسلام على بعضهم البعض حقوقاً ، ويتبايعون بعقد أخوة في الثاني ، زيادة خير ، وابتغاء توثق ، وعنصر تذكير ، لتنشأ الجماعة المؤتلفة المتماسكة المستحكمة التي وصفها إقبال - رحمه الله - في رموزه حين يقول :

كل فرد بأخيه انتلفا \*\*\*\* مثل در في سموط ألفا

لفهم في عيشهم معترك \*\*\*\* كل فرد بأخيه ممسك

من جذاب تتوالى الأنجم \*\*\*\* كوكب من كوكب مستحکم <sup>2</sup>

وهكذا ، فإنه ليس من عمل للداعية المسلم اليوم أثنى من غدوة يهب فيها لدعوته - بفضل الله - ناشئاً يغمس نفسه فيؤزره ، فيستغلظ ، فيستوي على عقد الأخوة ، يعجب الدعاة ، و يغبط به الكفار .

#### • ميزان التصاحب

وهكذا تكون الأخوة بين الدعاة هي الركن المهم في تربيئنا بعد الصلاة والتسبيح ، وما من جزء من أجزاء الحركة الإسلامية يقذف بنفسه في ميدان العمل العام قبل إحلال معاني الأخوة الإيمانية في أعضائه إلا ذاق وبال تساهله وتفريطه ، ولا مناص من أن تدرج بدايته على طرق الإيمان واستغلال دقائق الليل الغالية ، ويكون فيه ( أدب الأخوة ) مترجماً في تناصح وتكافل وتحابب يجمع القلوب ويعلمها التحالم - إن لم يكن الحلم - عند إبطاء المقصر و تجاوز الملحاح ، مثلما يعلمها المكافأة والوفاء والشكر عند إسراع المبادر و عدل خفيض الجناح .

لقد أحب الإمام البنا هذا الأدب للدعاة ، ووضع له منهجاً بحيث " يرفع أخوتهم من مستوى الكلام والنظريات إلى مستوى الأفعال والعمليات " <sup>3</sup> ، ورأى رحمه الله من تأخي الرعيل الأول ما أقر عينه حياً ، وبرهان وفاء محبيه من بعده أن يكونوا دوماً عند محاسن هذا الأدب ، وأن يفينوا إليه عند أول انتباهه إذا أنستهم الغفلات . إنها نعمة الأخوة .

يجعلها عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أثنى منحة ربانية للعبد من بعد نعمة الإسلام فيقول : ( ما أعطي عبد بعد الإسلام خيراً من أخ صالح ، فإذا رأى أحدكم ودأ من أخيه فليتمسك به ) .

و يسميها التابعي مالك بن دينار : روح الدنيا ، فيقول : ( لم يبق من روح الدنيا إلا ثلاثة : لقاء الإخوان ، و التهجد بالقرآن ، و بيت خال يذكر الله فيه ) . و يحكر لها الشاعر صفة الذخيرة ، فيقول :

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة \*\*\*\* و لكن اخوان الثقات الذخائر

و لهذا كثرت توصية السلف باتقان انتقاء الأخ صاحب ، لتصاب الذخيرة الحقة ، والروح الحقة ، فكان من وصايا الحسن البصري سيد التابعين أن : ( إن لك من خليك نصيباً ، وأن لك نصيباً من ذكر من أحببت ، فتنبقوا الإخوان و الأصحاب والمجالس ) <sup>4</sup>

فأما أولاً : فقد عموماً صفة الخيرية بإطلاق تحكم الانتقاء ، وعبروا عن ذلك بقولهم :

أنت في الناس تقاس \*\*\*\* بالذي اخترت خليلاً

فأصحب الأخيار تغلو \*\*\*\* و تنل ذكراً جميلاً <sup>5</sup>

ثم خصصوا ففسروا الخير بالتقوى ، وقالوا :

<sup>1</sup> صحيح البخاري 9 / 98 .

<sup>2</sup> ديوان الأسرار و الرموز / 84 .

<sup>3</sup> رسالة التعاليم / المجموعة 28 .

<sup>4</sup> كتاب الزهد لابن المبارك 232 .

<sup>5</sup> نفح الطيب للمقرئ 67/8 .

نفس ، إذا نافست في حكمة \*\*\*\*\* آخ ، إذا آخيت ، أهل التقى  
ما خير من لا يرتجي نفعه \*\*\*\*\* يوماً ، ولا يؤمن منه الأذى<sup>1</sup>

ثم زادوا و ذهبوا أبعد ، فعددوا صفاتهم ، يعينونك على دقة الاختيار .

❖ أعلى صفاتهم : طيبة القول ، ذكرها عمر رضي الله عنه فقال : " لولا أن أسير في سبيل الله ، أو أضع جبيني لله في التراب ، أو أجالس قوماً يلتقطون طيب القول كما يلتقط طيب الثمر ، لأحببت أن أكون لحقت بالله " <sup>2</sup>  
❖ و من صفاتهم : أن أحدهم : ( يرفع عنك ثقل التكلف ، و تسقط بينك و بينه مؤونة التحفظ . و كان جعفر بن محمد الصادق - رضي الله عنهما - يقول : أثقل اخواني علي : من يتكلف لي وأتحفظ منه ، و أخفهم علي قلبي من أكون معه كما أكون وحدي ) <sup>3</sup>

❖ و من صفاتهم : ترك حضيض الدينار والدرهم ، و السمو إلى العلا ، وضربوا لذلك الإمام أحمد بن حنبل في انتقائه الأصحاب مثلاً ، وذلك حين يقول الذي يطريه :

و يحسن في ذات الإله إذا رأى \*\*\*\*\* مضيماً لأهل الحق لا يسأم البلاء

و أخوانه الأذنون كل موفق \*\*\*\*\* بصير بأمر الله يسمو إلى العلا<sup>4</sup>

❖ و من صفاتهم : مذاكرة الآخرة ، كما قال الحسن البصري : " إخواننا أحب إلينا من أهلنا و أولادنا ، لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا و إخواننا يذكروننا بالآخرة " <sup>5</sup>

❖ و من صفاتهم الإيثار ، وهو أحد أركان بيعة الشاعر صالح حيوي لهم حين يقول :

أبدأ أظل مع الثقة ، مع الدعاة العاملين

الناشرين لواء أحمد عالياً في العالمين

المنصفين المؤثرين على النفوس الآخرين

معهم أظل ، مع الثقة ، مع الدعاة المسلمين<sup>6</sup>

❖ و من صفاتهم : بذل النصح ، فأحدهم : ( صالح يعاونك في دين الله ، و ينصحك في الله ) .

#### • آفات المجالس :

وهذا الانغماس يؤدي إلى الاجتماع والمجالسة بالتالي ، ولذلك وجب التعرف على سيماء المجالسة النافعة ، و الابتعاد عن بعض المعاييب التي تلحقها .

ويجمع ذلك : تحري النفع في الدين فإنها الكلمة الجامعة المانعة ، والمادة الموجزة في قانون التآخي ، يضعها زين العابدين علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم ، فيقول : " إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه " <sup>7</sup>  
فشأن كل داعية ناشئ أن يرتاد لنفسه المجالس التي يزيد فيها إيمانه وعلمه ، وأن يقصد المجالس التي تنفع دينه ، ولا يعرف مجالس اللغو و اللهو و قتل الفراغ .

وشرح ذلك إقبال بشرط حاسم ، يريد لنا أن لا نطيل القول بعده ، فقال يدعو الله عز و جل :

<sup>1</sup> لأبي العتاهية في ديوانه 25 .

<sup>2</sup> الزهد لابن المبارك 416 .

<sup>3</sup> احياء علوم الدين 188/2 .

<sup>4</sup> مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي 114 .

<sup>5</sup> احياء علوم الدين 2 / 176 .

<sup>6</sup> مجلة التربية الإسلامية 55/7 .

<sup>7</sup> تهذيب التهذيب 396/2 .



هب نجياً يا ولي النعمة \*\*\*\* محرمًا يدرك ما في فطرتي  
هب نجياً لقنا ذا جنة \*\*\*\* ليس بالدنيا له من صلة<sup>1</sup>

فهذا جماع القول :

إن صاحب الداعية المسلم : داعية آخر ليس بالدنيا له من صلة .

صلته بالآخرة ، و شوقه إلى الجنة .

بينه وبين الدنيا انقطاع و جفاء .

إن تحرير عنه : وجدته .

إنه هو صاحبك .

آخه ، وأحبيه ، واصحبه ، وأعطه مثل الذي يعطيك ، وإلا فإنك أنت العاجز ، فإنه كان يقال :

" أعجز الناس من فرط في طلب الإخوان , و أعجز منه من ضيع من ظفر بهم ) .

فاطلب الإخوان ، نرفع عنك صفة العجز . ولابن القيم كلام موجز شامل في ذلك ، يدل على تجربة داعية من أهل الوعي ، شخص فيه

أخطار المجالس فقال : " الاجتماع بالاخوان قسمان :

أحدهما : اجتماع على مؤانسة الطبع و شغل الوقت ، فهذا مضرته أرجح من منفعته ، و أقل ما فيه أنه يفسد القلب و يضيع الوقت .

الثاني : الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة و التواصي بالحق و التواصي بالصبر ، فهذا من أعظم الغنيمة و أنفعها ، و لكن

فيه ثلاث آفات :

أحدها : تزين بعضهم لبعض .

الثانية : الكلام و الخلطة أكثر من الحاجة .

الثالثة : أن يصير ذلك شهوة و عادة ينقطع بها عن المقصود " <sup>2</sup>

والذي يؤسف له أن مخاوف ابن القيم هذه تحولت إلى واقع تحياه بعض مجالس الدعاة الحالية ، ووجد التزين وسيلة ليظهر فينا ،

وزادت الخلطة بين الدعاة عن مقدارها الذي تحتاجه الدعوة وتحولت إلى شبه بطالة وشهوة تلهي عن مقصود تجمعنا في متابعة العمل

مع الناشئة والجدد ، وفي الانطلاق خلال المجتمع العام لتبليغه كلمة الإسلام .

• و المرء يعجب من صغيرة غيرة !

و لو أن عادتي التزين و البطالة تفتان عند حدهما لعولج أمرهما بمجرد استنهاض وتذكير خفيين ، ولكن هاتين الآفتين تتعديان في

آثارهما ، ويتولد عن اجتماعهما خلق الضيق عن العفو ، بينما يشير استقرار الحياة الجماعية إلى ضرورة خلق التسامح والمرونة

لمن يحياها .

وقد يظن البعض أن مثل هذا الكلام أقرب إلى مواظب العامة منه إلى بحوث فقه الدعوة ، ولكن من يعاني إدارة العمل اليومي للدعوة

الإسلامية يدرك ضرورته ، و يعرف كم من الترف ، بل و الخطر ، يكمن فيمن يتعالى عن مثل هذه المواظب ليهمس بمعاني فنون

التخطيط والعمل السياسي في آذان من تضيق صدور بعضهم عن معاني التسامح و العفو عن صاحب الزلة و الخطأ ، ولا بد من اقتران

التوعية العملية للداعية المسلم بالتربية الخلقية الإيمانية ، ولا بد من سيرهما معاً .

وهذا هو مصدر إصرار الأقدمين و المعاصرين على التوصية بسعة الصدر ، و التحابب الأخوي .

يقدمهم الفضل بن عياض فيقول : " من طلب أخاً بلا عيب صار بلا أخ " فضع في حسابك عندما تعقد ( عقد الأخوة ) أن من تتعاقد معه

غير معصوم .

ويأخذ الشعراء دورهم في التوصية ، فيقول مشرقهم :

<sup>1</sup> ديوان الأسرار و الرموز 71 .

<sup>2</sup> الفوائد لابن القيم 51 .



لا لوم في خطأ ولا تثريبا

و يقول مغربيهم :

سامح أخاك إذا أتاك بزلّة

ويقول ثالثهم :

إذا ما بدت من صاحب لك زلة \*\*\*\* فكن أنت محتالاً لزلته عذراً

أحب الفتى ينفي الفواحش سمعهُ \*\*\*\* كأن به عن كل فاحشة وقرا

سليم دواعي الصدر لا باسط أذى \*\*\*\* ولا مانع خيراً ، ولا قائل هجرا

ولكن كم أرتنا الأيام من قال هجرا ، وتراه إذا ما دعوته إلى اللين يعبس ويبسر ، و يذهب مغاضباً ، كأنما تدعوه إلى شيء نكر ، و إنما هي سذاجة نفسه نريد أن نقيه إياها ، وإنما هو تربص العدو نريد أن نبعده عنه ، بما عرفنا عن عدونا من قعوده للدعاة صراط أخوتهم المستقيم .

وهاؤم تفحصوا تاريخنا ، كم من منتصر لنفسه استعجل فخاصم ، فما استطاع من قيام وما كان منتصراً ، و لفته دوامة العيش المعقد فضاع في خضمّها منسياً ، يأكل و يشرب ، و ليس له من بعد ذلك نوع وجود .

إن جموع هؤلاء المغاضبين إنما تأخرت و ضاعت في تيار الدنيويات بما كانت بموازين الأخوة تخل ، ولو أنهم استقاموا على الطريقة الأولى وراغوا إلى فقه الأخوة الموروثة ، لما مسّهم اللغوب و الضياع .

إن الفقه الذي ورثناه عن التابعي بكر بن عبد الله المزني ينص على إنك : " إذا وجدت من أخوانك جفاء فذلك لذنب أحدثته ، فتب إلى الله تعالى ، و إذا وجدت منهم زيادة محبة فذلك لطاعة أحدثتها فاشكر الله تعالى ) .

فاتهم نفسك إذا عوملت بجفاء أو رأيت نوع تقصير في حقك الذي تظنه قبل أن تبادر بالهجوم .

إن هذه النصوص القديمة من فقه الأخوة الإيمانية ، يصوغها عبد الوهاب عزام في العصر الحديث في بيتين جامعين من مثاليه و يقول :

في فؤادي بحران : ملحّ وعذب \*\*\*\* وبه صرصر وريح رخاء

فهو مرّ على البغاة عصوف \*\*\*\* وهو عذب لصاحبي و صفاء<sup>1</sup>

فأنت مطالب أيها الداعية المسلم أن تملأ قلبك من مشاعر الأخوة في الله لإخوان العقيدة بقدر ما يجب أن تضع فيه من مقت أهل الباطل البغاة .

<sup>1</sup> ديوان المثاني 38 .

### سادساً : أشجار الإيمان

وحدة العبودية ، و تكاملها ، في أجزاء هذا الكون ، لله تعالى الذي خلقه : حقيقة يراها المتفكر ، إذا استطاع أن يفلت من الصخب الملهي و يتأمل في هدوء وروية .

منها : عبودية لا تشوبها الوسواس ، لبساط الأرض جميعه ، حشائشه و الباسقات ، نبهك القرآن لها ، في قوله عز وجل : { والنجم والشجر يسجدان } .

قال الطبري : " يعني بالنجم : ما نجم من الأرض من نبت ، وبالشجر : ما استقل على ساق " <sup>1</sup> فهو منظر سجود دائم يراه المؤمن ليكون له تذكرة حين تثقله الغفلة ، يديم له سجوداً قلبياً ، آيته الرضا عن الله ، والتسليم لحكم حاله وحرامه ، به يستكمل سجود جبهته مغراه .

ومتى ذاق المؤمن ، بالخلوات المسترسلة ، لذة مراقبة هذا السجود الأخضر ، المتوشح بألوان الزهر ، وأذن لقلبه أن يبالي في الهبوط مقلداً ، حتى يلامس أوطأ الإخبات : نادى غيره للمشاركة ، وعرض عليه الرفقة ، منخلعاً عن حسد واحتكار .

وتلك هي دعوة إقبال ، لما ظفر بسر السباحة الإيمانية الصامته ، في البراري الناطقة ، ونبهك إلى إنصات واجب ، لتسيح دائب ، و أوصاك أن :

دع الدور و اطلب فسيح البراري \*\*\*\* و انظر إلى صفحات الجمال

على حافة الماء دون ملال \*\*\*\* تأمل ترقق ماء زلال

وحقق إلى نرجس ذي دلال \*\*\*\* وقبّل عيوناً له كاللآلي <sup>2</sup>

و كان عبد الوهاب عزام أول مجيب له ، وطفق يستغرق في التأمل ، فرآه جاهل بما هنالك فأنكر عليه ، فقال :

لست أخلو لغفلة و سكون \*\*\*\* وفرار من الورى و ارتياح

إنما خلوتي لفكر و ذكر \*\*\*\* فهي زادي و عُدتي لكفاحي

و ما زاد بهذا على أن جدد مذهباً سالفاً ، و عرفاً عند أول المسلمين ، في استلال ساعة من بين حركاتهم في التعلم و التعليم ، والأمر و النهي ، و ضرورات المعيشة ، يميلون فيها إلى التفرد خارجاً ، والركون إلى أرباض مدنهم ، و الجلوس بين الزروع ، يرجون لأنفسهم بصائر و تذكرة .

وروى ابن القيم أن شيخه ابن تيميه ، رحمهما الله ، كان يتركهم غادياً بعد الفجر مراراً ، فراقبه ، فوجده يعتزل في غوطة دمشق و حقولها ، حتى غدت عنده عادة .

وما ذاك على أسلوب القرآن بغريب ، ولا على رموز النص الشريف المأثور و تشبيهاته ، بل هو ارتباط واضح خلالهما بين الخضرة و خصال الفطرة ، ترك طابعه على طرائق المؤمنين في التعبير و التمثيل ، في نحو على منحاهما ، يدلك على قلوب فقهاء المناسبة ، واستوعبت الإشارة ، وشهدت الرابط الجامع في لقيا الشجر و معاني الإيمان إنها غاية من أشجار الإيمان ، فيها أيك ملتف متشابك ، تجعل سيرك في ظل وارف ، و مداعبة من زكي العبيق .

• تفجؤك فيها شجرة التوحيد .

وهي شجرة غرسها القرآن ، تستلقي تحت أغصانها حين تقرأ قول الله تبارك وتعالى :

<sup>1</sup> تفسير الطبري 516/1 - طبعه دار المعارف .

<sup>2</sup> ديوان رسالة المشرق 30 .

{ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تُؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربها ، و يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون }

قال ابن القيم : " فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل ، الباسقة الفرع في السماء علواً ، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين . و إذا تأملت هذا التشبيه رأيت أنه مطابقاً لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب ، التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء . ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء . ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت ، بحسب ثباتها في القلب ، ومحبة القلب لها ، وإخلاصه فيها ، ومعرفته بحقيقتها ، و قيامه بحقوقها ، ومراعاتها حقّ رعايتها " <sup>1</sup>

و من السلف من قال : إن الشجرة الطيبة هي النخلة ، ويدل عليه حديث ابن عمر في الصحيح ، وقال الربيع بن أنس : ذلك المؤمن ، أصل عمله ثابت في الأرض ، و ذكره في السماء .

قال ابن القيم :

" ولا اختلاف بين القولين ، و المقصود بالمثل : المؤمن ، و النخلة مشبهة به ، وهو مشبه بها " <sup>2</sup>

❖ و من مكانك تحتها تشم عبير ورود بقربها ، من شجرة تسمى شجرة الطاعة ، شهدت منحة الرضوان ، لما أسبغت ، يوم نزلت : { لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً } و يفتأ المستظل بظلها اليوم ساكن الفؤاد ، غير مضطرب لحرمان وفوات ، ينتظر فتحاً لحركة الإسلام تندكّ به صروح الضلال ، قد قدّم له التبايع على الموت ثمناً .

❖ فإن اختار الله لك المحنة سبيلاً لهذه المنحة ، وحزبك الأمر : لجأت إلى شجرة الترحاب ، تطلب الطمأنينة عندها ، هازأ جذعها ، لتغدق عليك من بركتها ، وتفعل ما فعلت مريم عليها السلام لما ضاقت عليها الأرض ، فجاءها نداء : { و هزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً فكلي واشربي و قرّي عينا } .

فتأكل رطيبات وتقعق بها ، عازفاً عن بظر المترفين ، وتغرف من ثمّ من سري بين يديك يجري ، مستعلياً بعزة دونك مدارجها ، ترقى إليها وتسري .

❖ و للنبي صلى الله عليه وسلم غراس في هذه الغابة ، كما أن الحكمة أشهدت الشجر مواقف من سيرته الشريفة ، إيماء إلى هذا الارتباط ، ربما ، و إثارة لتطلع الغافل .

منها : شجرة الوفاء ، عنوان امتزاج الأرواح الذاكرة ، تنطق بالشكر ، و تحفظ الفضل لأهله ، و تعلن عرفان الجميل . وهي نخلة ، تنهّدت عند الفراق .

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه :

( كان جذع يقوم إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما وُضع له المنبر سمعنا للجذع مثل أصوات العِشار ، حتى نزل النبي صلى الله عليه وسلم ، فوضع يده عليه ) <sup>3</sup>

أي كأصوات النياق التي أثقلها حمل بطنها وقرب مخاضها . وتلك من معجزاته ، عليه أفضل الصلاة و أزكى السلام .

جذع أنيل الشرف ، فوفى ، واجتمع له الحنين ، فاستبدّ به استبداداً ، فرّق منه الأنين .

وما من أحد إلا وفي بيته ديوان حديث ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم واقف عنده يُفقه أمر دينه ، و يُلقنه شرائع الإسلام ، و الوفاء يليق لمثلنا ، نتعلمه من الجذع ، و نترجمه صُوراً من الاتّباع و الاقتفاء .

❖ و شجرة خامسة تسمى شجرة الثبات ، تلوذ بها يوم تتوزع الناس الأهواء ، فتطلب النجاة معتزلاً بالفرق كلها ، ( ولو أن بعض بأصل شجرة ) <sup>1</sup>

<sup>1</sup> إعلام الموقعين عن رب العالمين 188/1 طبعة الوكيل .

<sup>2</sup> إعلام الموقعين عن رب العالمين 188 / 1 – طبعة الوكيل .

<sup>3</sup> صحيح البخاري 11/2 .

وتصون لسانك إلا عن قولك مع عبد الله بن أبي مليكة : " اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نُفتن " <sup>2</sup> فلأمر ما مما نقول كان هذا الاعتصام بالشجر ، في إلحاح يزيد معه المعتصم شدّ نواجذه ضاعطاً ، لو تخيلته ، لتردّد قلبك يهتز في قلق ، بين رهبة من استرخاء يعتري فيجرف ، و أمل في إتمام يُنجي .

إلا أن رحيق هذه الشجرة يرويك إذ الناس تلهث عطشاً ، ويبيل حلقك بارداً ، فتضاعف العضّ مُبالغاً ، كأنك تمص الثبات راضعاً .  
❖ و سادسة تُعرف بشجرة الأنس ، تُصاحبك عند الوحشة ، وتخفف رطوبتها جفاف هفواتك . غرسها النبي صلى الله عليه وسلم لما مرَّ بقبرين يُعذبان ، فكان أن : ( أخذ جريدة رطبة ، فشققها بنصفين ، ثم غرز في كل قبر واحدة ، فقالوا : يارسول الله : لم صنعت هذا ؟ فقال : لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا ) <sup>3</sup>

ففهم بُريدة الأسلمي – رضي الله عنه – من ذلك أنها سُنّة ، فأوصى أن يُجعل في قبره جريدان ، فما زال الناس يُقلّدونه في ذلك .  
وقد لا نخلوا من لم يكدر صفو العمل ، أو من تتبّع بفضول لما في يد أهل الدنيا من أموال الاستدراج ، يكون معه الأرق المتلف ، واضطراب النوم ، فيضعف الاستعداد للفجر الآتي ، ولعل سويعة لك تحت سعف النخيل تخفف لهفك .

❖ ثم شجرة المفاصلة ، شهدت كيف يتم استقلال الوسيلة عند المسلم استقلال الهدف ، و ذلك لما تبع مشرك جيش المهاجرين والأنصار حين سيره نحو بدر ، يريد أن يقاتل معهم ، حمية و نصرة لقومه ، فلما وصلوا شجرة ضخمة كانت معلماً في الطريق ، ذكرتها عائشة رضي الله عنها : لحق بهم ، فالتفت إليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ( ارجع ، فإن أستعين بمشرك ) <sup>4</sup> فمضى ذلك أصلاً ، لم يطرأ عليه الاستثناء إلا في حوادث ضيقة .

و تحاصر جبهات الأحزاب اليوم دعوة الحق ، تثبّ إرجافها ، متهمة إياها بتخلف عن ركب سياسي مجتمع ، فيقصد الدعاة الأشجار المعالم الضخام ، فتشهد بانتفاء اللقاء ، و عيب النزول بعد الاستعلاء .

❖ ولما فقه الناس هذه الأمثال : تتابعوا في سباق يغرسون ، فكانت شجرة ثامنة عرفت بينهم أنها شجرة الاعتفار .  
وهي شجرة عنب كثيرة الثمر ، فكان غارسها إذا مرَّ به صديق له : اقتطف عنقوداً ودعاه ، فيأكله ، وينصرف شاكرًا .  
فلما كان اليوم العاشر : قالت امرأة صاحب الشجرة لزوجها : ما هذا من أدب الضيافة ، ولكن أرى إن دعوت أخاك ، فأكل النصف ، مددت يدك معه مشاركاً ، إيناساً له ، و تبسطاً و إكراماً .  
فقال : لأفعلن ذلك غداً .

فلما كان الغد ، و انتصف الضيف في أكله : مذ الرجل يده و تناول حبةً ، فوجدها حامضة لا تساغ ، وتفلها ، و قطب حاجبية ، و أبدى عجباً من صبر ضيفه على أكل أمثاله .

قال أبو حيان التوحيدي : فقال الضيف : قد أكلت من يدك ، من قبل على مر الأيام حُلواً كثيراً ، و لم أحب أن أريك من نفسي كراهة لهذا تشوب في نفسك عطاءك السالف <sup>5</sup> .

و ما هذه من قصص الأغاليط ، ولكنه مثل ضرب لك أيها الأخ الداعية فاستمع له ، ومجاز تدلف منه إلى العدل مفتوح أمامك .  
فليس فيمن حولك من انبغت له العصمة و استقام له الصواب ، فإن أخطأ معك أخ لك فلا تجرمنك كبوته على الهجران ، و التأفف ، و الضجر و الانتقاص منه ، بل ولا على العتاب ، إنما تتصبر ، و تكظم و تعفو في سرك مستحضرًا جمال سابقاته ، و جياذ أفعاله ، و حلو مكرماته ، إذ لعله قد أعانك على توبة أو ظاهرك عند تعلمك رديفًا و رفيقًا و سميرًا ، أو علّمك باباً مما علّمه الله و طريقه .

❖ فإن استفتدت و نشرت الانصاف ، فقد أذن لك في أن تستلقي تحت شجرة هيفاء ، كثيرة الثمار و الورود ، يخلب نظر الرائي جمالها ، و تُنطق المستمتع حمداً لرفيع ذوق غارسها .

اسمها : شجرة الزهد .

<sup>1</sup> صحيح البخاري 65/9 .

<sup>2</sup> صحيح البخاري 58/9 .

<sup>3</sup> صحيح البخاري 14/2 .

<sup>4</sup> صحيح مسلم 201/5 .

<sup>5</sup> الامتاع و الموائسة 121/2 .

وهي شجرة قلبية فريدة ، و لم يسبق صاحبها أحد إلى استنبات مثلها ، فجاءت بدعة ، و وصفها فقال :

غرس الزهد بقلبي شجره \*\*\*\* بعد أن نقي بجهد حجره  
وسقاها إثر ما أودعها \*\*\*\* كبد الأرض بدمع فجره  
ومتى أبصر طيراً مُفسداً \*\*\*\* حانماً حول حماها زجره  
نمت في ظل ظليل تحته \*\*\*\* روح القلب و نحي ضجره  
تم بايعت إلهي وكذا \*\*\*\* بيعة الرضوان تحت الشجرة

فانظروا أطوار رعايته لها ، وعنايته بها ، وكيف بدأ بتطهير قلبه مما هنالك من أحجار الحسد و الرياء و التكبر و سوء الظن ، و كيف سقاها بدموع الخشية في الأثلاث الأخيرة ، وكيف زجر شياطين الإنس و الجن لما حامت حول بذرتها تبغي التقاطها ، وقأده ، و أفعله : تورق لك أختها ، و تتفتح لك منها الزهور بألوان و عطور ، فتنام تحتها كما نام ، تستشعر شعور أهل بيعة الرضوان ، و كأنك فيهم و معهم ، تغمرك نشوة البيعة على الموت في سبيل الله دفاعاً عن الإسلام .

❖ و وعى الإمام حسن البنا - رحمه الله - فن زراعة أشجار الإيمان ، فغرس لك الشجرة العاشرة ، وهي شجرة الحلم ، و صفها مخاطباً الدعاة فقال : " كونوا كالشجر، يرميه الناس بالحجر ، و يرميهم بالثمر " . ولقد أجاد وأفاد ، فإن في أكثر الناس سرعة جنوح إلى الجهل ، يميلهم إلى تكذيب دعاة الإسلام و إيدائهم بالباطل . ولو جهل الداعية مثل جهل الجاهلين ، وقابل الإساءة بإساءة ، لعفت رسوم الإحسان واندثرت ، و لكنه الصدر الواسع ، والاحتساب ، والاستغفار لقومه الذين لا يعلمون .  
أما بعد :

فليس الإمام البنا بأخر غارس في غابة الإيمان ، و إنما وضعنا في يدك الفأس ، و أعطيناك البذر ، فأبذر : تجد الثمر و فيراً ، مباركاً .  
فاخرج و تجول متأملاً : تجد أخلاق الإيمان قد مازجت الخضرة ، و إن لكل شجرة تعبيراً عن شيء من محاسن الخصال يمازج سجودها ، و يقترن بمظهر عبوديتها لله خالقها .

ومن ها هنا كانت سويغات الخلوة بين الشجر سبب ذكرى للغافلين ، و سبيل إنابة .  
و مما ينبيك عن صدق ظننا الحسن هذا بالأشجار أن الله سبحانه ضرب مثل الكلمة الخبيثة المنافية للتوحيد كشجرة خبيثة ، لكنها ليست قائمة ، بل اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .  
فليس من شجر واقف إلا و يعظك بكلمة من الإيمان .

## 7- حصار الأمل

هذه الحياة ، بجوانبها العديدة ، و تبدلات المجتمعات التي تحياها ، قد لا يفهمها جيل المسلمين اليوم من دون الرجوع إلى نظرة واقعية لها ، متسمة بالبساطة ، مستقرنة للمحسوس المشاهد منها .

ولا ريب في أن تجاوز مجرد الاستقراء ، وفهم الأمور معللة مسببة ، هو الوضع الأمثل ، المؤدي إلى الإيمان الأتم الأوفر ، وهو لما يُظن أنه من ظواهر التناقض أوجب ، و لذلك جاءت عقيدة الإسلام تُحلل وتُعلل ، ليحيا مَنْ حَيَّ عن بينة . ولذلك أيضاً حاولت الفلسفات أن تفهم محركات الحياة ، فقاربت كافتراق سقراط من عقيدة التوحيد ، أو أبعدت ، كبعد جمهور المحاولين .

و بتفسيرات مَنْ شَرَحَ الكمال العقيدي الإسلامي ، أو من خلال محاورات الفلاسفة في محاولاتهم الوصول إلى المثالية اتسع القول في القدر ، والجبر والاختيار ، وسر تردد النفس بين التقوى و الفجور ، و حكمة خلق الشيطان و القائه للنفس حتى لتختار الضرر الواضح و تأتي بما لا ياتلف مع الفطرة ، و غلبة أهل الشر أحياناً مع كثرة إفسادهم وإرهاقهم للناس ، وكثرة محن أهل الخير وصدود الناس عنهم مع عظيم بذلهم ونفعهم للناس ، و أمثال هذا . و لكن حياة اليوم اكتنفها التعقيد المادي من كل أركانها ، وتركت كثيراً من المسلمين - كشأن أغلب الناس - في زحمة من المتطلبات والحوائج تسلبهم التفرغ لتأمل ساكن يحللون فيه و يعطلون .

و لذلك لم يعد هذا النظر التحليلي بممكن للجميع ، فضلاً عن أن يكون مفهوماً للجميع ، مع أن المسلم مطالب و مكلف - في الوقت نفسه - بأداء الواجب المفروض عليه في التأثير الخَيْر في الحياة ، بالأمر بالمعروف ، و الدعوة إليه ، والنهي عن المنكر ، ملزم به إلزاماً ، مُضَيِّق عليه في الاعتذار إزاءه .

ومن هنا تفرض سرعة صراعنا الحاضر مع أشكال الكفر الجديدة أن نلجأ ، بسرعة توازيها ، إلى بساطة النظرات الواقعية ، لإسعاف المسلم القائم على ثغور هذا الصراع بقناعة و شجاعة تدعاه يلج دروب البذل التي تفرضها واجبات رقابته على العالمين ، أمماً و أفراداً ، وأمره ونهيه ، مقوماً لهم ومُعدلاً .

ولن تجد الحركة الإسلامية ثنية بعيدة عن البدعة تطل بدعاتها من فوقها على منظر بسيط لحقيقة الحياة ، شامل في رؤيته ، كما تكون إطلاقتها على حقيقة الموت . هذه الحقيقة المستغنية عن الدليل والتحليل ، والتي تؤذن فيهم وفي الناس كل صباح ومساء .

### • عظمة المشهود : دليل الغيب

و ذاك من كمال عقيدة الإسلام وتمام فن المؤمنين بها في الدعوة إليها ، أنها و أنهم في حرص على أن يسلك المتحير أو المتردد الطريق الأدنى إلى الإيمان .

والمثل في ذلك كمثّل الذي استغلقت عليه الغيوب التي أخبر بها الأنبياء عليهم السلام ، من البعث والحساب ، والجنان والنيران ، فتمر به على سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، تريحه إعجاز ما بين صدعه بالتوحيد فريداً مكثراً ، وبين صدع المؤذنين بالتكبير قبل نهاية سيرة الراشدين من خلفائه على كل روابي أرضين المدنيات ، فتجعل رؤية إعجاز السيرة باب تصديق يدلف منه إلى ما يكاد أن يكون رؤية لذلك الغيب ، و تكون قد جعلت الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم سبباً للإيمان بالله ، ولا نعلم فقيهاً يمنع ذلك ، غير الباقلاني ، فإنه يوجب الإيمان بالله تعالى قبل الإيمان برسله صلى الله عليه وسلم ، وليس لمنعه وجه ظاهر .

هذا بَلَّة عن امتلاء القرآن بندايات بسيطة و دعوة إلى تفكر في خلق السماء و الأرض يقود إلى الإيمان بالله .

وكل ذلك من وجوه كمال عقيدة الإسلام ، بما نوعت خطابها لأنصاف العقول و مقادير النباهة ، فمن أشكل عليه التعليل : أدخلته من باب ما يمكن حسه ، و عوّضت عن التعليل بتكرار التذكير .

و الواقعية التي نريد أن نستفيد منها اليوم ليست إلا التي وفرتها عقيدتنا منذ أبعد الأمس ، حين أطنبت في التذكير بالموت ، و أُنذِر كتابها سكرة لا بد أن تميد لها كل نفس مهما كانت عنها تحيد .

ولهذا وجب على خطة الحركة الإسلامية التربوية أن تعتمد التذكير بالموت ضمن أسسها ، و تأخذ بيد كل داعية ليلمس لمساً قريباً حقيقته وتفاهة الحياة ، فينطلق من بعد انطلاقة في البذل ، و يتخلص من ثقله إلى الأرض تحاول الأموال أن تُركس كل متزين بها إليها .

#### • لوحة من الفن الإسلامي :

و لنن جمع قادة الحروب جنودهم قبل كل معركة ، و حلقوا بهم حلقة ، ليرسموا لهم على الأرض خطة تعبئة لحصار عدوهم ، فإن على قادة الحركة الإسلامية أن يرسموا قبل ذلك لحلقات الدعاة إلى الله خطة حصار الأجل للأمان الكواذب ، يذكرونهم إياه ، كما رسمه النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم لأصحابه على أرض المدينة ، ففتحت لهم – لما وعوا خطوطه – المدن .

و كان فيهم يومها : عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فوصف فقال : ( خط النبي صلى الله عليه وسلم خطأ مربعاً ، وخط خطأ في الوسط خارجاً منه ، و خط خطأ صغاراً إلى هذا الذي في الوسط ، من جانبه الذي في الوسط ، وقال : هذا الإنسان ، وهذا أجله محيط به – أو : قد أحاط به – وهذا الذي هو خارج : أمله ، وهذه الخطط الصغار : الأعراض ، فإن أخطأه هذا : نهشه هذا ، و إن أخطأه هذا : نهشه هذا )<sup>1</sup>

وكان فيهم أيضاً : أنس بن مالك رضي الله عنه ، فوصف ، فقال : ( خط النبي صلى الله عليه وسلم خطوطاً ، فقال : هذا الأمل ، وهذا أجله ، فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب )<sup>2</sup>

وفي رواية : مثل ابن آدم جنبه تسع و تسعون مئة ، إن أخطأته : وقع في الهرم .

و اكتملت بهذه الخطوط الشريفة لوحة من الفن الرمزي التجريدي فريدة .

إنه الإنسان الضعيف تغزوه الأعراض غزواً فيه إلحاح . عدوى ، أو سرطان ، أو حريق ، أو غرق ، أو زلق ، أو سقوط ، أو اصطدام ، أو لدغة ، أو تسمم بطعام ، أو طلقة تاتيه .

فإذا نجا من كل ذلك : كان له في الهرم ، و ضغط الدم وارتفاع نسبة السكر : تأديب أي تأديب .

فإن أطال النفس : اقتص منه الموت { قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم } تعددت الأسباب والموت واحد ، يحاصر الأمل الشارد الذي يتوهم الإفلات حصاراً شديداً .

أمل أبيض وضآء ، كلما برق : زهت في نظر صاحبه الأموال ، و الحسان ، و العطور ، و القصور ، و المناصب ، و الشهادات ، فينسى مع نظره المنسرح المسترسل متطلبات دعوته ، و يصد عينه عن أرض مقدسة يفسد فيها يهود ، ولا يعود أنفه يشم رائحة شواء دعاة الإسلام في الصومال ، ولا تنتن جثث الأتراك تحت حائط في قرية قبرصية ، وتتناسى أذنه وقع أحذية عساكر الهنادك في البنغال ..!

لكنه لو نظر ببصيرته لعرف أن أمله الوضاء إنما يلفه محيط أسود حالك ، يتيه فيما دونه من الظلمات ما لم يتبع في مشيه مخرجاً تدل عليه التقوى .

فهو ترَّقُب جميل ، لكنه يتنغص .

وظل ظليل .. لكنه يتقلص .

ومطامع وراء الأودية والمفاوز ، وليس هو لما قُدر له بمجاوز .

و أنفاس قبل كل ذلك .. تُعدُّ .

ورحالة .. تُشدُّ .

وعاريتيه .. تُرد .

و التراب من بعد .. ينتظر الخد

<sup>1</sup> صحيح البخاري 111/8

<sup>2</sup> صحيح البخاري 111/8

فإنه ليس عُقبى الباقي غير اللحاق بالماضي .  
وعلى أثر من سَلَفَ .. يمشي من خلف .  
و ما ثَمَّ إلا أمل مكذوب ..... و أجل مكتوب .

#### • رؤية تمتد

و " إن هذا النظر ، الذي وراءه التذكر ، الذي وراءه التقوى ، التي وراءها الله ، هذا وحده هو القوة التي تتناول شهوات الدنيا فتصفيها أربع مرات ، حتى تعود بها إلى حقائقها الترابية الصغيرة التي آخرها القبر ، و آخر وجودها التلاشي " <sup>1</sup>  
و " إن الذي يعيش مترقباً النهاية يعيش مُعداً لها ، فإن كان مُعداً لها : عاش راضياً بها ، فإن عاش راضياً بها : كان عمره في حاضر مستمر ، كأنه في ساعة واحدة يشهد أولها ويحس آخرها ، فلا يستطيع الزمن أن ينغص عليه مادام ينقاد معه و ينسجم فيه ، غير محاول في الليل أن يبعد الصباح ، ولا في الصباح أن يبعد الليل " <sup>2</sup>  
و بمثل هذا النظر و الترقب الذي أكسبه الأنبياء عليهم السلام من قاتل معهم من الرّبيّين : صفت النفوس ، و ثبتت بركيزة من الطمأنينة سكنت معها و هدأت ، فرأت حين زال الاضطراب إطار الحقائق الترابية للشهوات الدنيوية ، فزال ما هنالك من تطلع زائد .  
ثبات له من الرسوخ إزاء الأمانى مثل الذي كان ما بين رؤية إبراهيم عليه السلام للأفول ، فلم يحب الأفلين ، و بين بقية من حنيفيته – كادت أن تتصل ببعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم – أرّت أمية بن أبي الصلت حقائق الحياة ، فكاد أن يسلم ، فصرخ فيما حوله من جاهلية :

اقترب الوعدُ ، والقلوب إلى اللهو \*\*\*\* و حب الحياة سائقها  
ما رغبة النفس في البقاء وأن \*\*\*\* تحيا قليلاً والموت لاحقها ؟  
أمامها قائد إليه ، ويحدوها \*\*\*\* حثيثاً إليه سائقها  
قد أيقنت أنها تصير كما \*\*\*\* كان يراها بالأمس خالقها  
و إن ما جمعت وأعجبها \*\*\*\* من عيشة مرة مفارقها  
من لم يمّت عبطة يمت هرماً \*\*\*\* للموت كأسٌ و المرء ذائقها

فكانت صرخاته في عكاظ إرهاساً ينبى عن نبوة جديدة ، أحييت لما جاءت سنن الترقب و النظر الذّاكر ، فزهّد أصحاب ورثوها بما هنالك ، فانقلبوا يصلحون للإنسان الواهم ما أفسدته شهواته ، وما متاع أحدهم عند الوداع غير بُردة قصيرة جعلت عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يبكي ، و يعاف الطعام ، ويقول :

( قَتَلَ مصعب بن عمير وهو خير مني : كُفِنَ في بُردة ، إن غطي رأسه : بدت رجلاه ، وإن غطي رجلاه : بدا رأسه ، ثم بُسِطَ لنا من الدنيا ما يُبسط ، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عَجَلَتْ لنا ) <sup>3</sup>

#### • نسيان الموت أول الإنحراف

و ليس ذاك بكاء الأسى ، حَزْناً أن لم يرَ أخاه مصعباً مترقياً ، إنما هو بكاء الخشية من بعض مباح أن يكون حسنة معجّلة تمنعه الآجل ، كما أفصح ، ودموع حذر تخرجها روعة تجرد لجهاد يرى ذهاب أبطاله تباعاً ، فيخلف من بعدهم خلف تكثر في يده الأموال ، و يخاف أن يتنافسوها ، فيتوقف نبض فتوح الهداية .

يشبه بكاؤه ذاك عبرة ظلّ يغص بها خلق أبي الدرداء مراراً وهو يقول : ( أبكاني فراق الأحبة : محمد وحزبه ) <sup>1</sup> ، يُعبر بها عن وجهه من جديد طراً على سمت الجيل الثاني ، مثلما يريد بها إظهار ألمه لفراق أخوة كانوا له سبب هداية وتثبيت ، وفهمهم وفهموه ،

<sup>1</sup> وحي القلم للرافعي 198/2 ، 75 /1 مع جمل سبقتهما للزمخشري و ابن الجوزي .

<sup>2</sup> نفس المصدر السابق .

<sup>3</sup> صحيح البخاري 121/5 .



في تعامل مسترسل ، ما التالي لهم - مهما حرص - بقادر على أن يُسلي عن قلب أبي الدرداء رضي الله عنه تسليتهم عنه . وكأنهم حالة ما زالت تستبد بكثير من الدعاة الغريباء ، لا يستطيعون لها وصفاً .

لكنه حزن المجاهد الفقيه ، ما كان ليهبط بأبي الدرداء إلى حشرات تستهلك الهمة ، بل أدى به إلى صعود سلم التربية ، فاعتلى درج مسجد دمشق ، فقال : ( يا أهل دمشق : ألا تسمعون من أخ لكم ناصح ! إن من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيراً ، ويبنون شديداً ، ويأملون بعيداً ، فأصبح جمعهم بوراً وبنائهم قبوراً ، وأملهم غروراً )<sup>2</sup> و لبث في أهل دمشق سنين يخفف أثر هجمة المال ، ثم أورث المقال أهله ، فكان الرجل منهم يأتي أم الدرداء يستنصحها فيقول : ( إنني لأجد في قلبي داءً لا أجد له دواء . أجد قسوة شديدة وأملاً بعيداً ! ) فتقول : اطلع القبور واشهد الموتى<sup>3</sup>

#### • إحياء الأمة بذكر الموت

وقارب الاستدراك في زمن الراشد الخامس أن يتم ، لولا السم .  
فقد واصلَ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الطريقة ، فأرجف بذكر الموت قلوب جيله رهبة ، فنفضت رانها ثم انثنى ، فحرك إلى الشهادة حناياها .

و ما أكثر ما وقف عمر موقف أبي الدرداء على درج مسجد دمشق ، ليجدد الوعظ القديم ، ويقرر لهم :  
" إن الأمان غداً لمن حذر الله وخافه ، و باع قليلاً بكثير ، و نافذاً بباقي " .

حتى إذا أيقنوا صواب الصفقة : راح يريهم من يومياتهم وواقعهم ، بعين التأمل ، مالا تراه عين الغفلة ، ويقول لهم : " ألا ترون في أسلوب الهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقيون ، وكذلك حتى تُردوا إلى خير الوارثين ؟ ألا ترون أنكم في كل يوم وليلة تشيعون غادياً إلى الله ورائحاً ، قد قضى نحبه ، وانقضى أجله ، وطوي عمله ، ثم تضعونه في صدع من الأرض في بطن لحد ، ثم تدعونه غير مؤسد ولا ممهد ، قد خلع الأسلاب ، وفارق الأحباب ووجّه للسحاب ، غنياً عما ترك ، فقيراً إلى ما قدّم " . ولربما أجلس أحدهم أمامه و علمه ، تعليمه عنبسة بن سعيد : " يا عنبسة : أكثر ذكر الموت ، فإنك لا تكون في ضيقة من أمرك ومعيشتك فتذكر الموت إلا اتسع ذلك عليك . ولا تكون في سرور من أمرك و غبطة فتذكر الموت إلا ضيق ذلك عليك " <sup>4</sup>

حتى إذا ربى حاشيته ، و خلصوا من وهم الأمل نجياً : راح ينشر مذهبه في الأمصار ، فيرسل على أعيانهم ، فيأتونه ، فيفشي لهم سرّ القبر ، وما هو عند أولي الألباب بسرّ .

قال التابعي محمد بن كعب القرظي رحمه الله :

( لما استخلف عمر بن عبد العزيز رحمه الله بعث إليّ وأنا بالمدينة فقدمت عليه ، فلما دخلت جعلت أنظر إليه نظراً لا أصرف بصري عنه ، متعجباً ، فقال : يا ابن كعب : إنك لتنظر إليّ نظراً ما كنت تنظره !

قلتُ : متعجباً

قال : ما أعجبك ؟

قلت : يا أمير المؤمنين : أعجبنى ما حال من لونك ، و نَحَلَ من جسمك و نفي من شعرك .

فقال : كيف لو رأيتني بعد ثلاثة ، وقد دليتُ في حفرتي ، وسالت حدفتي على وجنتي ، و سال منخري صديداً و دوداً ؟ )<sup>5</sup>

فشاع خبره في الآفاق ، حتى إذا أرسل إلى أعيان الكوفة : بادروه مبادرة ، و جلبوا شاعرهم أعمش همدان معهم ، يعلن له قناعتهم و براءتهم من أمل يطاره عمر ، قد عرفوا جده في إجلائه عن دار الإسلام .

و ينطلق الأعمش بين يدي عمر :

<sup>1</sup> الزهد لابن المبارك / 84 .

<sup>2</sup> الزهد لابن المبارك / 291 .

<sup>3</sup> عيون الأخبار لابن قتيبة 371/2 .

<sup>4</sup> طبقات ابن سعد 5 / 372 .

<sup>5</sup> الزاهد للإمام أحمد / 295 .

و بينما المرءُ أمسى ناعماً جذلاً \*\*\*\* في أهله معجباً بالعيش ذا أنق  
غراً ، أتيح له من حينه عَرَضٌ \*\*\*\* فما تَلَبَّثَ حتى مات كالصَّعِقِ  
ثَمَّتْ أضْحى ضحى من غِبِّ ثالثة \*\*\*\* مُقْتَعاً غير ذي روح ولا رَمَقِ  
يُبكي عليه و أدنوه لمُظْلِمَةٍ \*\*\*\* تُعلَى جوانبها بالتُّرب و الفلق  
فما تَزَوَّدَ مما كان يَجْمَعُهُ \*\*\*\* إلا حَنَوطاً و ما واره من خِرَقِ  
و غيرُ نَفْحَةٍ أَعوادٍ تُشَبُّ له \*\*\*\* وقلَّ ذلك من زادٍ لمُنْطَلِقِ

فتنهمر هائلة دموع عمر ، وتختلط بأصوات نشغاته ، ليتجاوز تَرادُ صداها دهوراً تتعاقب ، يفقد المربين المسلمين .

#### • عودة إلى الرشد :

ولئن توالى اليوم فراق الأحبة ووداع الرعيل الأول المتجرد المتواضع المؤسس للحركة الإسلامية المعاصرة ، لنبكيه مع هجمة المال بكاء أبي الدرداء ، أو بكاء سلمان الفارسي ، وفي رواية أخرى حذراً وغربة ، حين افتقدا ، رضي الله عنهما ، حزب محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن بكائنا لا يحق له أن يهبط بنا إلى تأوهات تجاوزتها همتها ، ولا بد لنا - مع بداية مرحلة جديدة تُرشح دعوتنا لملء فراغ تركه فشل التطرفات القومية و الشيوعية - من ارتقاء درجات الاستدراك التربوي ، هامسين لكل داعية بمواعظ عمر ، لتعود لنفسه فتوتها وإقدامها ، وتطلعها الأخرى ، فإنه قد طال التجوال في البطالة ، ولربما حيّر ، وامتد الركون إلى الاغترار و كانه قد غير .

وكان بالداع قد يبكي \*\*\*\* عليه اقربوه  
و كأن القوم قد قاموا \*\*\*\* فقالوا : أدركوه  
سائلوه ، كلموه \*\*\*\* حرّكوه ، لقنوه  
حرّفوه ، وجّهوه \*\*\*\* مدّدوه ، غمضوه  
عجّلوه لرحيل \*\*\*\* عجّلوا لا تحبسوه  
ارفعوه ، غسلوه \*\*\*\* كفّنوه ، حنّطوه  
فإذا ما لفّ في الأكفان \*\*\*\* قالوا : فاحملوه  
أخرجوه فوق أعواد \*\*\*\* المنيا شيعوه  
فإذا صلوا عليه \*\*\*\* قيل : هاتوا و اقبروه  
فإذا ما استودعوه \*\*\*\* الأرض رهناً تركوه  
خلّفوه تحت رمس \*\*\*\* أو قروه ، أثقلوه  
أبعدوه ، أسحقوه \*\*\*\* أوحّدوه ، افردوه  
ودّعوه ، فارقوه \*\*\*\* اسلموه ، خلّفوه  
و انثنوا عنه و خلّوه \*\*\*\* كأن لم يعرفوه

## 8- تِلَالِنَا الْهَامِدَة

لنن رأينا أبا الدرداء رضي الله عنه بعد فراقه حزب محمد صلى الله عليه وسلم باكياً ، فإنه سرعان ما انقلب ضاحكاً ، ليقول : ( أضحكني : مؤمل الدنيا ، والموت يطلبه , وغافل ، ليس بمغفول عنه , و ضاحك بملء فيه ولا يدري أرضى الله أم أسخطه )<sup>1</sup> وإنما هو ضحك التعجب من صورة حياتية يشاهدها كل مراقب لحياة الناس ، يرى خلالها أنماطاً من الغفلة تحرف شدة طمع تصاحبها بعض الناس عن رؤية مصير رهيب يتخطف غيرهم من حولهم ، وما لهم أدنى ضمان لدفعه لو جاءهم كما يجيء أولئك .

فالناس في غفلاتهم \*\*\*\* ورعى المنية تطحنُ

وهي ضحكة قد تهجم على صاحبها لأول وهلة حين يحار في تفسير هذه الظاهرة ، لكنها سرعان ما تتحول إلى شفقة ورحمة تأبى إلا أن تصدم الغافل صدمة إيقاظ تخرجه عن سكونه .

رحمة حركت أبا الدرداء برفق فأتى إلى هذا الذي أضحكه فنقر بأصبعه على كتفه فالتفت ، فهمس في أذنه أن : ( ويحك كيف بك لو قد حُفِرَ لك أربع أذرع من الأرض )<sup>1</sup> وما ندري مدى حظ ذاك المرء من التوفيق ، إن كان انخلع من غفلته أم سدر فيها ولكننا ندري

---

<sup>1</sup> الزهد لابن المبارك 554/84

أن همسة أبي الدرداء ما زالت حية ، وأن ما زرعه لم تزده الأيام سعة وطولاً ، وأن قبل هذه الأذرع الأربعة وبعدها قصة متصلة المشاهد ، يرويها الرواة لمن يلقي السمع وهو شهيد .

#### • يوم الحصاد :

مشهدا الأول : يوم الحصاد : يوم يحصد الموت الروح كما يحصد المنجل الزرع .  
وليس في التشبيه مفارقة ، فإن حصاد هذه الأرواح يحوي مثل ذلك من الفوائد ، من بين موت شهادة ظاهر نفعه ، وموت دون ذلك يكون للغير سبب اعتبار و ادكار .

وذلك ما صورته الشاعر حين خاطبك فقال :

ما أنت إلا كزرع عند خُضرته \*\*\*\* بكل شيء من الآفات مقصودُ

فإن سلّمتَ من الآفات أجمعها \*\*\*\* فأنت عند كمال الأمر محصودُ

أو قد يسمى هذا اليوم :

يوم الصراخ ، و ذاك حين يعرق الجبين ، و يتتابع الأنين ، وتكون الغرغرة ، وتبرد الأعضاء ، وتستبد السكرات ، فيفتضح الضعف ، فيعلو الصراخ .

باكيات عليك يندبن شجوا \*\*\*\* خافقات القلوب و الأكباد

يتجاوبن بالزنين و يذرفن \*\*\*\* دموعاً تفيض فيض المزاد

فيأتي من يحبسُنهن جانباً ، ليغسلوك على عجل .

عجلة يضجر الغاسل معها إن تباطأ من يحمي الماء ، فينادي : ألا إن وراءنا أشغالنا فاستعجلوا !!

كما هو الخلق القديم في الغاسلين ، منذ عصر من قال :

كأن لم أكن إذ احتث غاسلي \*\*\*\* و أحكم درجي في ثياب بياض

و ما هي إلا أذرع أربعة من القماش الرخيص ، كتلك من الأرض السبخة ، يحملك بعدها أصحابك على الرقاب

فلا تنس يوماً تسجى على \*\*\*\* سريرك فوق رقاب النفر

فإن كنت صالحاً : استبشرت تلك الساعة ، ولبثت تصيح طرباً قداموني ، تصدق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم حين قال :

( إذا وُضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم ، فإن كانت غير صالحة قالت لأهلها : ياويلها ! أين يذهبون بها ؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمع الإنسان لصعق )<sup>2</sup>

#### • ثم يوم الرقاد :

و تنتقل القصة إلى مشهد ثان يسمى : يوم الرقاد الطويل ، يبدأ بملكين يفتنان الميت ، ذكر خبرهما النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (

أوحى إليّ أنكم تُفتنون في القبور قريباً من فتنة الدجال . فأما المؤمن أو المسلم فيقول : محمد جاءنا بالبينات ، فأجبنا وآمنا .

فيقال : نَم صالحاً ، علمنا أنك موقن .

وأما المنافق أو المرتاب فيقول : لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته )<sup>3</sup>

و ذلك هو الحوار المذكور في الحديث الآخر ، أن : ( العبد إذا وضع في قبره و تولى و ذهب أصحابه ، حتى أنه ليسمع قرع نعالهم ،

أتاه ملكان فأقعداه .

فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ، محمد صلى الله عليه وسلم ؟

<sup>1</sup> الزهد لابن المبارك 554/84

<sup>2</sup> صحيح البخاري 103/2 ، 116/9 .

<sup>3</sup> صحيح البخاري 103/2 ، 116/9 .

فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله .

فيقال : أنظر إلى مقعدك من النار ، أبدلك الله به مقعداً من الجنة .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : فيراهما جميعاً .

و أما الكافر أو المنافق فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس .

فيقال : لا دريت ولا تلتيت .

ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنية ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين <sup>1</sup>

فيستيقظ الدود لتلك الصيحة ، ويهجم هجومه فيستسلم الرجل ويذعن ويأخذ يقول كأنه يستزيد :

ضعوا خدي على لحدي ضعوه \*\*\*\* و من عفر التراب فوسدوه

وشقوا عنه أكفاناً رقاقاً \*\*\*\* وفي الرمس البعيد فغيّبوه

فلو أبصرتموه إذا تقضت \*\*\*\* صبيحة ثالث : أنكرتموه

وقد مالت نواظر مقلتيه \*\*\*\* على وجناته ، فرفضتموه

فهناك يكون السكون ، حيث تصفر الرياح على تلال هامدة واطنة ، فيصل صفيروها إلى آذان أمهاتٍ ثكالى يخرجن ببلاهة يقودهن

الصفير إلى قبور أبنائهن ، لتسأل كل واحدة منهن ابنها :

بأي خديك تبدى البلى \*\*\*\* و أي عينيك إذا سالا ؟

فيجيبهن صوت بعيد ، من حيث القبر الأخير المنزوي :

لم تبق غير جماجم عريت \*\*\*\* بيض تلوح ، و أعظم نخره

و يثني آخر :

لا يدفعون هواماً عن وجوههم \*\*\*\* كأنهم خشب بالقاع منجدل

أو يرد صوت ثالث :

هجوّد ولا غير التراب حشية \*\*\*\* لجنب ، ولا غير القبور قباب

أو يخبرهن رابع :

قد أصبحوا في برزخ \*\*\*\* و محلة متراخية

ما بينهم متفاوت \*\*\*\* و قبورهم متدانية

فمحلهما مقترب ، وساكنها مغترب ، بين أهل موحشين ، وذوي محلة متشاسعين ، لا يستأنسون بالعمران ، ولا يتواصلون تواصل

الإخوان . قد اقتربوا في المنازل ، وتشاغلوا عن التواصل حتى طحنهم بكلّله البلى ، وأكلهم الثرى <sup>2</sup> .

وبينما هم كذلك إذ جاءهم من ليس هو بفضولي ، وعساه عند عمر بن عبد العزيز أو عنبسه أو القرظي يتدرب ، فيسألهم :

أين الوجوه التي كانت محجبة \*\*\*\* من دونها تضرب الأستار و الكلل

و يميل بأذنه يريد جواباً منهم ما هم بقادرين عليه ، فتنبو عنهم التلة الصغيرة تجيب ..

و أفصح القبر عنهم حين سألهم \*\*\*\* تلك الوجوه عليها الدود تقتتل

قد طال ما أكلوا دهرأ و ما نعيموا \*\*\*\* فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

فيتولى عنهم بجناح من الرهبة ، خفيض ، و دمع على الخدين يفيض ، يودع ويندب و يقول :

أهل القبور أحبتي \*\*\*\* بعد الجدالة و السرور

بعد الغضارة و النضارة \*\*\*\* و التنعم و الحبور

<sup>1</sup> صحيح البخاري 108/2 .

<sup>2</sup> أسطر لبعض الزهاد .

بعد الحسان المونسات \*\*\*\* و بعد ربّات الخدور  
أصبحت تحت الثرى \*\*\*\* بين الصفائح و الصخور

حساب و كتاب :

فيظنون بعد وداعه في انتظار مشهد ثالث يسمى : يوم البعث

يوم إنشقاق الأرض عن أهل البلى \*\*\*\* فيها ، و يبدو السخط والرضوان  
يوم القيامة ، يوم يُظلم ظلم \*\*\*\* الظالمين و يشرق الإحسان  
{ أن تقول نفس : يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله { و تنادي أخرى : { هل إلى مردّ من سبيل {  
و تستغيث أخرى : { ياليتنا نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل } .  
فهناك ثالثة يكون الوجل :

هناك إن كنت قدّمت مدخرا \*\*\*\* تُسقى من الحوض ماءً غير ذي أسن  
وتُنشر الصحف فيها كل مُحْتَقِب \*\*\*\* من المخازي وما قدّمت من حسن  
قد كنت تنسى وتلك الصحف محصية \*\*\*\* ما كنت تأتي ، ولم تُظلم و لم تُخن  
فالسعيد ذاك اليوم من كانت له في يومنا هذا بهذا عبرة ، تُستخرج من عينه و قلبه عبرة ، تنطق لسانه رهبة وأسفاً ، ليدندن في  
الليالي :

واحسرتي ، واشقوتي \*\*\*\* من يوم نشر كتابيه  
وأطول حزني إن أكن \*\*\*\* أوتيته بشماليه  
وإذا سُئلت عن الخطأ \*\*\*\* ماذا يكون جوابيه ؟  
و أحرّ قلبي أن يكون \*\*\*\* مع القلوب القاسية  
كلا ولا قدمت لي \*\*\*\* عملاً ليوم حسابية  
بل إنني لشقاوتي \*\*\*\* وقساوتي و عذابه  
بارزت بالزلات في \*\*\*\* أيام دهر خاليه  
من ليس يخفى عنه من \*\*\*\* قبح المعاصي خافية

• ما بعد هذا إلا التشمير

فأما صاحب القلب الحي فنقص له قصة الأيام الثلاثة هذه . وأما أموات القلوب فذرهم في ركستهم يتخبطون .  
{ ذرهم يأكلوا و يتمتعوا و يلههم الأمل فسوف يعلمون { تَمَتَّعَ أَكَلَةُ الْخَضِرَةِ التي حدثنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( أَكَلَةُ  
الْخَضِرَةِ أَكَلَتْ .

حتى إذا امتدت خاصرتها : استقبلت الشمس .

فاجترت وتلطت ، وبالت .

ثم عادت فأكلت (

هكذا كالخرفان تماماً ، يأكلون و ينامون ، فيغطون ، فيعودون إلى الأكل ، ولا شيء آخر .

تعست حياتهم !!

فتدبر أمرك أيها المسلم و تأمل .

وقف ولا تعجل .

فإنك لمتحن ، و بكسبك مرتتهن .

و إنه :

سيأتيك يوم لست فيه بمكرم \*\*\*\* بأكثر من حثو التراب عليك

بل يرى أصحابك ذلك غاية الإكرم لك .

يقولون : كان رحمه الله صديقاً لنا ، ولا بد أن نكرمه ، وواجب أن نحضر لنحنثوا التراب عليه .

وكم قد رأينا فتى ماجداً \*\*\*\* تفرع في أسرة ماجده

رماه الزمان بسهم الردي \*\*\*\* فأصبح في التلة الهامدة

فاذكر و اتعظ و لا تنشغل بالأمل عن ذكر قصة الحصار والحصاد والأجل عسيت بفضل الله تنجو ، و تفوز ببعض ما المؤمن يرجو

...

## 9- مدارس الموت

خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطوطه ، فاستيأس الأمل ، فبات الأصحاب يحبون أحب الأمور إلى الله : حياتهم أو الموت .  
إلا الفاروق عمر رضي الله عنه ، فإنه جمع بين هجر الأمل ، والجزع من الموت و كراهته ، فاتحاً بجمعه هذين النقيضين باباً يلج  
الموفق منه إلى زيادة في فقه الدعوة . وذاك حين طعنت المجوسية أبا حفص طعنتها ، فتغيب جرحه دماً كثيراً أخرجه إلى جزع وافق

دخولَ عبدالله بن عباس ، رضي الله عنهما ، عليه ، ففَعَّرَ فاه مستغرباً ، فقال عمر : " أما ما ترى من جزعي ، فهو من أجلك وأجل أصحابك " <sup>1</sup> .

و بهذه الحروف اختتم رضي الله عنه سيرة أتعبت كل دعاة الإسلام من بعده .

فالحياة يطلبها الغيور طلباً ، ويجزع لورود الموت جزعاً ، لما سيحول بينه وبين خدمة المسلمين والقيام بأمر دعوة الإسلام .  
وغدا هذا المفهوم ، بهذا المقدار ، يمثل الوجه الآخر للتربية الحركية الكابحة لانطلاق الآمال الدنيوية ، يمارس الداعية خلال نظره المتكرر إليها إيجابية تبعده عن يأس سلبي وتزهيد بالعمل يسببه نظر ناقص إلى مجرد كبت الآمال .

#### • مدرسة الكوفة تواصل الذكرى

ولئن كشفت هذه الكلمات في نهاية خلافة عمر - من جانب - للغافلين سر ما رآه المسلمون منه من تعب و سهر و تفكير ، فتأهبوا للاقتداء ، فألهامهم عبدالله بن سبأ زمن عثمان رضي الله عنه ، وأذهلهم ، فإن تشميراً رآه الناس في بداية خلافة علي رضي الله عنه ، كان بحاجة - من جانب آخر - بعد ذاك الذهول ، إلى كلمات أخرى تعظمهم ، و تعيب عليهم أملاً وجد له أثناء سنوات الفتنة مجال نمو ، بردت معه همم المقتدين .

و من هذه الحاجة نشأت مدرسة الكوفة في التذكير بالموت ، إذ طفق علي رضي الله عنه يجمع الناس في مسجد عاصمته ، ويصارعهم و يقول : " إنما أخشى عليكم اثنين : طول الأمل ، و اتباع الهوى ، فإن طول الأمل يُنسي الآخرة ، و إن اتباع الهوى يصد عن الحق " <sup>2</sup> . و تنتدب جمهرة من فقهاء أصحابه نفسها لمعاونته ، فيقوم الصحابي الأغلب بن جشم العجلي بعده ، فينشد بين يديه قصيدته التي مطلعها :

المرء تواقٌ إلى ما لم ينل \*\*\*\* و الموت يتلو ، ويلهيه الأمل

فيتلوه سيد زهاد التابعين : أويس بن عامر القرني ، فيقول : " يا أهل الكوفة : توسدوا الموت إذا نمتم ، واجعلوه نصب أعينكم إذا قمتم " .

حتى إذا قُتل علي بعدما خشعت القلوب وادكرت استمرت ثلثة من أصحابه على سمتة في الوعظ ، فكان الربيع بن خثيم يقول لهم :  
" أكثرُوا ذكر هذا الموت الذي لم تدوقوا قبله مثله " <sup>3</sup> . ويحفر له قبراً ، ويأخذ ينزل فيه كل يوم يتمدد ، ثم يقوم يذكر لهم مشاعره لما يكون بقعره .

ويذكر سعيد بن جببر لهم مقدار تصفية كلمات علي لقلبه ، فيقول : " لو فارق ذكر الموت قلبي : خشيت أن يفسد علي قلبي " <sup>4</sup>  
وكل هؤلاء : سعيد ، والربيع ، وأويس ، رحمهم الله ، والأغلب رضي الله عنه ، من ثقات أهل الكوفة الذين رباهم علي رضي الله عنه ، فلما ماتوا : أورثوها لآخرين يحفظون للكوفة سمتها ، فكان عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي يرتقي المنبر و يسألهم :  
كم من مستقبل لا يستكملهُ ، ومنتظر غداً لا يبلغهُ . لو تنظرون إلى الأجل و مسيره ، لأبغضتم الأمل و غروره " <sup>5</sup>  
فإذا نزل : صعد عمر بن ذر ، فخطبهم :

" أما الموت فقد شهِرَ لكم ، فأنتم تنظرون إليه في كل يوم وليلة ، من بين منقول عزيز على أهله ، كريم في عشيرته ، مطاع في قومه ، إلى حفرة يابسة وحجار صُم ، ليس يقدر له الأهلون على وساد إلا خالطه فيه الهوام ، فوساده يومئذ عمله . ومن بين مغموم غريب ، قد كثر في الدنيا همّه ، وطال فيها سعيه ، وتعب فيها بدنه ، جاءه الموت قبل أن ينال بغيته ، فأخذه بغتة . ومن بين صبي مرضع ، ومريض موجع ، ورهن بالشر مؤلّع ، وكلهم بسهم الموت يُقرع "

<sup>1</sup> صحيح البخاري 16/5 .

<sup>2</sup> الزهد لابن المبارك / 86 .

<sup>3</sup> طبقات ابن سعد 6 / 184 .

<sup>4</sup> الزاهد لأحمد بن حنبل / 371 .

<sup>5</sup> الزهد لابن المبارك 4



فلما مات هؤلاء النفر ، واجتمع علمهم وعلم شيوخهم عن علي في سفيان الثوري : تولاها طريقة ، واتخذ الموت نشيداً ، حتى قال أحد تلامذته : " ما جلست مع سفيان مجلساً إلا ذكر الموت ، وما رأيت أحداً أكثر ذكراً للموت منه " <sup>1</sup> وهكذا أعطت مشيئة الله تعالى لمدرسة الكوفة من بعد عمر بن الخطاب دورها في رقابة سواء سبيل أمة الإيمان ، وحفظه من الإنحراف وطغيان الآمال ، وشرفها ، فتمثلت بها بقية نهي عن الفساد ، تكثراً حيناً ، أو تقل من دون انقراض ، ليست دعوة الإسلام المعاصرة غير استرسال في كفالة القدر لوجودها ، وما وراثتنا لها إلا وراثته قري في النسب واشتراك في المورد .

#### • فبرز لها بالشام عمر

وكان الذي رويناه من استدراك عمر بن عبدالعزيز في أواخر المائة الأولى حلقة ضمن دعوة البقية الرقبية على سير القرون ، اتصلت بمدرسة علي الكوفية عن طريق عون ابن عبدالله ، وعمر بن ذر ، وأعشى همدان الشاعر ، الأنف ذكرهم ، اتصالاً اعتيادياً كما هو شأن العلم في قلبه في البلاد ، و شأن البقية الناهية في قلبها عبر القرون ، لكنها حلقة استطاعت أن تستأثر بحيازة إعجازين قصرت عنهما الحلقات التي بعدها :

\* إعجاز أكسبه إياها موضع الخلافة العالي ، فشخصت القدوة المهابة من بعد بعض انقطاع ، فتسارع الإصلاح ، فاختصر الزمان ، فكانت هنيهة قصيرة أثرت دهوراً طويلة .

\* وإعجاز بلاغي آخر ، ولید تفكر وعمر ، وربيب نغمة من فصاحة عربية كانت ما تزال تنساب من فيه ، بها فضح عيب تمتع جيله بأسلاب الهالكين ، وبها راد لقرون تليه خبر موت أعمله حدسه أنها ستكون عنه من اللاهين ، فحدثها حديث صدق عن : ( قبور خرقت الأكفان ، ومزقت الأبدان ، ومصت الدم ، وأكلت اللحم . ترى : ما صنعت بهم الديدان ؟ مَحَتِ الألوان ، وعفرت الوجوه ، وكسرت الفقار ، وأبانت الأعضاء ومزقت الأشلاء .

ترى : أليس الليل والنهار عليهم سواء ؟

أليس هم في مدلهمة ظلماء ؟

كم من ناعم و ناعمة أصبحوا وجوههم بالية ، وأجسادهم عن أعناقهم نائية ، قد سالت الحديق على الوجنات ، وامتلاأت الأفواه دماً وصديداً ، ثم لم يلبثوا والله إلا يسيراً ، حتى عادت العظام رميماً . قد فارقوا الحدانق ، فصاروا بعد السعة إلى المضائق ) .

ثم راح ينادي حتى صحل صوته : ( ياساكن القبر غدا ، مالذي غرك من الدنيا ؟

أين دارك الفجاء ؟

و أين رفاق ثيابك ؟

ليت شعري كيف ستصبر على خشونة الثرى ، وبأي خديك يبدأ البلى ؟ )

وبمثل هذا : استأسر فقهاء الأمصار لعمر ، فجمع قلوبهم حوله ، وجعلهم له أعواناً في تعميم رشد ، وأخرجهم إلى مشاركة جماعية في تعليم الأمة وتربيتها ، متناسقة مع أسلوبه ، أغنت حكمه عن سيف وحساب ، واستثمر بها طاقات خير دفينة مغروسة في أصل فطرة الناس ، قدم لها منه القيادة ، فقدمت له منها المتابعة .

#### • مدرسة البصرة تؤيد :

ولئن أسرع عنبسة أو القرظي الاستجابة لعمر ، في أرهط من الشاميين والمدنيين ، فإن الحسن البصري ، عبر عن سيادته الجيل الأوسط من التابعين طراً ، وبتأثير ما اقتبسه من علي ومدرسته الكوفية ، قد أنزل البصرة مكانة التقدم في التأثير التربوي في الأمة من قبل أن يحكم عمر ، مكنها من بعد أن تسبق الربوع الأخرى في إعادة رسم خطوط حصار الأمل ، ورواية قصة الرقاد الطويل ، وتأكيد مذهب عمر وترويجه ، حتى غدت مواعظ الحسن أداة تربوية ، تكتب في نسخ وتوزع مع بريد الخلافة كما توزع الصحف اليوم ، فيجد

<sup>1</sup> تاريخ بغداد 157/9 .

المسلم المرباط في أقصى الثغور في شدة نبراتها حماسية يهتز بها للشهادة قلبه ، تعادل رقة يرجف لها بدن المتعلم العاكف ، والساذج المزارع ، و التاجر الساعي .

وهكذا وافقت دمعات الرشد فهماً لدى إمام البصرة ، وبدأت الآمال تقصر بمآل إلى الردى يصوره الحسن و يحذرهما أهوالاً تستقبلها ليست سكرات الموت إلا بواكر حسابها و عتب أبوابها ، فراح ينادي :  
( المبادرة ، المبادرة .

فإنما هي الأنفاس لو حسبت : انقطعت عنكم أعمالكم , إنكم أصبحتم في أجل منقوص ، والعمل محفوظ ، و الموت – والله – في رقابكم ، و النار بين أيديكم ، فتوقعوا قضاء الله عز و جل في كل يوم و ليلة .  
لقد فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فرحاً و إن أمراً هذا الموت آخره ، لتحقيق أن يزهد في أوله .  
وإن أمراً هذا الموت أوله ، لتحقيق أن يخاف آخره )<sup>1</sup>

#### • ميزان بصري في فقه الدعوة

وصاغ الحسن خلال ذلك ميزاناً إيمانياً يقدم له الواقع المرني كفاية من دلائل الإقناع ، ربما نشأت له اسم ( ترجيح التخويف ) ، ساقه في صورة خطاب ، فقال : " إنك والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمناً ، خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف " <sup>2</sup>

وهو ميزان يمثل بعضاً مما أضافه الحسن إلى فقه الدعوة . فالخوف العاجل عنده ، المؤدي إلى التقوى ، المؤدية إلى أمن أجل في ظلال الجنان : خير من مدّ عريض للنظر إلى صفات الله سبحانه في الرحمة واللفظ والغفران .

وكلاً من الحالتين تُراد ، والأمر في حقيقته معلق بنسبية واضحة ، ربما أوجبت تخفيف رهبة البعض بأبواب من الرجاء أغلقتها عليهم شدة الخشية ، ولكن هذا المعدن فريد ، والغرور يلف الجمهرة العظمى ، وما من دواء له إلا الإخافة بقصة التلال الهامدة .  
وفي التنبيه على هذه النسبية يقول ابن الجوزي :

" إذا رأينا أرباب الدنيا قد غلبت آمالهم ، وفسدت في الخير أعمالهم : أمرناهم بذكر الموت والقبور والآخرة فأما إذا كان العالم لا يغيب عن ذكره الموت ، وأحاديث الآخرة تُقرأ عليه ، و تجري على لسانه ، فتذكّره الموت زيادة على ذلك لا تفيد إلا انقطاعه بالمرة .  
بل ينبغي لهذا العالم الشديد الخوف من الله تعالى ، الكثير الذكر للآخرة ، أن يشاغل نفسه عن ذكر الموت ، ليمتد نفس أمله قليل ، فيصنّف ، و يعمل أعمال خير " <sup>3</sup>

#### • مدرسة بغداد تنجح للبساطة

وقد أضافت المدرسة البغدادية من بعد تلك المدارس تطويراً مهماً إلى فقه الزهد وكتب الآمال .. يوم أدخلت عنصر البساطة في التذكير على لسان رائدها بشر بن الحارث الحافي لما أتاه آت وطلب منه الموعدة فقال له :

" إن في هذه الدار نملة تجمع الحب في الصيف ، فتأكله في الشتاء ، فلما كان يومٌ : أخذت حبة في فمها ، فجاء عصفور فأخذها والحبّة ، فلا ما جمعت أكلت ولا ما أمّلت نالت " <sup>4</sup>

هذه هي الحياة عند بشر : إنسان يجمع ، فيأتيه الموت ، فيأخذه وما جمع .

هكذا ، بلا أبيات شعر ، ولا ألوان من الجناس والبديع نطلبها اليوم تشغلنا عن جوهر المواعظ .

لأولي الألباب كفاية بيوميّات العصفور والنمل .

<sup>1</sup> الزهد لأحمد بن حنبل / 285 و مصادر أخرى .

<sup>2</sup> الزهد لابن المبارك / 102 .

<sup>3</sup> صيد الخاطر / 158 طبعة الغزالي .

<sup>4</sup> تاريخ بغداد 321/3 .

ثم بلغت هذه البساطة البغدادية ذروتها لما تولى الإمام أحمد زمام التربية ، فذهب فيها لأبعد مما ذهب قرينه بشر ، فسكت ، حتى أن الكتب تكاد أن لا تورث له في المواعظ قولاً ، وعوض تلامذته وأجيال الأمة عن ذلك بوجه معبر كأنه يطلع إلى القيامة ، وصبر على العذاب والإغراء ثبتت به الأمة إزاء دعاية المبتدعة ، وسيرة في التعفف و التقليل تستحي منها نوايا الإثراء.

فلما مات سنة إحدى وأربعين ومائتين ، وانتقل شيخ البخاري الحسن بن عبدالعزيز الجروي من مصر إلى بغداد وسكنها ، وصار في عداد البغداديين : رأى ضرورة استمرار القدوة الصامتة ، فم يأخذ من إرث أبيه شيئاً ، لشبهة خالطته ، وقال : " من لم يردعه القرآن والموت فلو تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع " <sup>1</sup>

قال صاحب تاريخ تنيس : " وكان أبوه ملكاً على تنيس ، ثم أخوه علي ، ولم يقبل الحسن من إرث أبيه شيئاً ، وكان يُقرن بقارون في اليسار " <sup>2</sup>

#### • التربية بالاعتراف :

وظفق المربون بعد أحمد والحسن الجروي يمارسون طريقتين في التربية : فمن حاز مرتبة أحمد وزهده و ورعه و حياة قلبه : قلده في سكوته ، وترك حاله تخبر الأبصار .

ومن لم يحز مثل سمو أحمد ، ولبت دون ذلك : سلك طريقة الاعتراف ، فيستفز الأسماع ، كما استفزها الخليفة العباسي الراضي بالله ، لما جمع ببغداد الغافلين ، وحاول من بعد المتوكل أن يتشبه بعلي وعمر بن عبدالعزيز و يقلد طريقتهما ، فراح ينشد لهم من نظمه :

كل صفو إلى كدر \*\*\*\* كل أمن إلى حذر  
ومصير الشباب للموت \*\*\*\* فيه أو الكبر  
أيها الآمل الذي \*\*\*\* تاه في لجة الغرر  
أين من كان قبلنا \*\*\*\* درس الشخص والأثر  
سيرد المعار من \*\*\*\* عمره كله خطر  
رب أني ذخرت عندك \*\*\*\* أرجوك مدخر  
إنني مؤمن بما \*\*\*\* بين الوحي في السور  
و اعترافي بترك نفعي \*\*\*\* وإيثاري الضرر  
رب فاغفر لي الخطيئة \*\*\*\* يا خير من غفر  
أو كما استفزها بالأندلس آخر ، حين راح يعترف :

إلى كم أقول ولا أفعل \*\*\*\* و كم ذا أحوم ولا أنزل  
وأزجر عيني فلا ترعوي \*\*\*\* وأنصح نفسي فلا تقبل  
و كم ذا تعلل لي ، ويحها \*\*\*\* بعلّ وسوف وكم تمطل ؟  
وكم ذا أومل طول البقا \*\*\*\* وأغفل والموت لا يغفل ؟  
وفي كل يوم يُنادي بنا \*\*\*\* منادي الرحيل : ألا فارحلوا  
كأن بي وشيكاً إلى مصري \*\*\*\* يساق بنعشي ولا أمهل <sup>3</sup>

#### • و بعد :

<sup>1</sup> طبقات الحنابلة 135/1 .

<sup>2</sup> تهذيب التهذيب 292/2 .

<sup>3</sup> نفح الطيب 275/ 4 .

و بعد يا داعية الإسلام .. إنَّ من جدَّ وجد ، وليس من سَهَر كمن رقد . فلا تكن ممن تضمَّه الكتائب ، وقلبه عن المشاركة غائب . و هذا الموت منك قيد شبر الشابر .  
و هذا دبيب يُسارق نفسك ساعتها .  
و إن سلَّ المعالي غاليات الثمن ، و إنما ثمنها اتباع مدارس الكوفة والشام ، ومدرسة إمام البصرة الحسن ، فانظر لنفسك .  
و اغتنم وقتك .  
( فإن الثواء قليل ، والرحيل قريب ، والطريق مخوف ، والاغترار غالب ، والحظر عظيم ، والناقد بصير )<sup>1</sup>  
وفقنا الله و إياك .

## 10- لا يَأْ قِيُود الأرض

لئن كان الدعاة إلى الله قد فقهوا طريق الاستدراك ، ورفضوا الانصياع للفساد الذي استشرى ، وتمردوا على عملية الترويض ، وبدأوا جهود تثبيت وتربية لأولي الفطرة الصحيحة ، فإن غيرهم بات يتألم لواقع المسلمين و يتأوه ، ولا يعدو إبداء الحزن ، وقبع في بيته أو مسجده ، يلفه اليأس ، تاركاً دعاة الإسلام وحدهم في المعركة ، يظن أنه بحزنه قد أبرأ ذمته ، بل ربما يظن أنه قد كسب المناقب .  
وليس الأمر كما ظن وإن اقترن بحزنه ما يثاب عليه ويؤجر ، فإن المسلم الذي يبغي درجات الكمال يحزن لواقع المسلمين ، لكنه يترك بيته وراءه ظهرياً ، و يتصدى للناس ، واعظاً وناصحاً ومربياً ، وخائضاً بهم دروب الجهاد .  
قال ابن تيمية رحمه الله : " قد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه ، فيكون محموداً من تلك الجهة لا من جهة الحزن ، كالحزين على مصيبة في دينه ، وعلى مصائب المسلمين عموماً ، فهذا يثاب على مافي قلبه ، من حب الخير وبغض الشر ، وتوابع ذلك ، ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة ، نهى عنه ، وإلا كان حسب صاحبه رفع الإثم عنه " <sup>2</sup>  
فافهم هذا يا من تتمنى أن يغير الله الأحوال بلا عمل منك ومن أمثالك .  
وحولك من يعمل و يناديك ...

أيها المشدود في تيه الأمانى  
خفف الآهات دع عنك التواني  
لا تبالي إن بغت كف الزمان

<sup>1</sup> اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي / 16 .  
<sup>2</sup> مجموع الفتاوى 17/10

واعتصم بالله ذا أسمى وأفضل

أنت تدري أيها الحيران عَنَّا

كيف فوق الشمس أزماناً حَلَلْنَا

أيها المذهول لا تَيْأَسْ فإنا

لبناء الأمة العصماء نعمل<sup>1</sup>

فكن من العاملين أيها المبهور .

إنك إن كنت تعرف أنا خير من يعمل ، و أظهر من يتصدى ، فلم تهرب منا ؟

" إن الحسرة والتألم وتصعيد الزفرات ليست سوى وسيلة سلبية لا تجرح قوى الباطل - بل لا تخذشها - ، وهي لا بأس بها لكنها تنقلب إلى أمر بالغ الخطورة إذا لم يعقبها عمل إيجابي مثمر ، إذ تكون وسيلة لامتصاص النقمة على الأوضاع الفاسدة ، ومن ثم الركون إليها ، وعلى أحسن الفروض : استمرار هذه النقمة ، ولكن بشكل جامد لا حياة فيه يؤدي إلى شلل الحركة . وليس أفضل لقوى الباطل من هذا الوضع " <sup>2</sup>

وإنما الصواب في كل حين أن تسلك طريق الهمة ، وهو الطريق الذي وصفه قدوة العراق آخر الزمان العباسي ، الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله ، فكان ينادي أهل بغداد بصوته الهادر أن : " سيروا مع الهمم العالية " <sup>3</sup>

لا تتواروا ولا تنسحبوا ، بل سيروا مع الهمم العالية .

ولا زال هذا الطريق هو الطريق المعبد الوحيد في خارطتنا .

أما الجبن ، والانتزاع ، والتأوه ، فصحارى مهلكة .

وجرب غيرك الأعوان ، وأعطاك النتيجة ، فقال :

لي معينان : همة واعتزام .

لم يجد غيرهما . وخاتمة بقية الأعوان .

وعونك المخلص ما أوصلك إلى اللذة الصادقة في الحياة . ومغشوش واهم ذاك الذي يظن اللذة فحسب لذة القرب من الزوجة والأولاد والأموال ونيل الترقيات الوظيفية .

و إنما السعادة في رضى الله .

و إنما اللذة لذة البذل والفداء .

و نداء الشيخ عبد القادر يأتينا عبر القرون :

" أنتم غفل عما القوم فيه ، تواصلون العناء في الكد على النفوس التي هي عدوتكم . ترضون أزواجكم بسخط ربكم عز وجل . كثير من الخلق يقدمون رضا أزواجهم وأولادهم على رضا الحق عز وجل " .

وما بغير البذل ينطق قاموسنا ، " لكن يغلط الجفاة في مسمى الحياة ، حيث يظنونها التنعم في أنواع المآكل و المشارب و الملابس و المناكلح ، أو لذة الرياسة و المال و قهر الأعداء و التفنن بأنواع الشهوات ، ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم ، بل وقد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان ؛ فمن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التي تشاركه فيها السباع و الدواب و الأنعام فذلك ممن ينادي عليه من مكان بعيد . ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلى عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكين ، ورضي بتركها كلها والخروج منها رأساً ، وعرض نفسه لأنواع المكاره والمشاق ، وهو متحل بهذا منشراح الصدر به ، يطيب له هجر ابنه و أبيه و صاحبتة و أخيه لا تأخذه في ذلك لومة لائم ، حتى أن أحدهم ليتلقى الرمح بصدرة و يقول :

<sup>1</sup> لمحمود آل جعفر في حنين إلى الفجر / 140 .

<sup>2</sup> الفتح الرباني / 297 .

<sup>3</sup> الفتح الرباني / 298 .

فزت و رب الكعبة . و يستطيل الآخر حياته حتى يلقي قوته من يده و يقول : إنها لحياة طويلة إن صبرت حتى آكلها ، ثم يتقدم إلى الموت فرحاً مسروراً " <sup>1</sup>

هذا ما نعرفه من شأن الداعية . لا يكون كامل العبودية لله حتى يصل إلى مثل حال إبراهيم عليه السلام ، لما استسلم وأطاع ووضع السكين على خلق ابنه ....

و بهذا وصفه اقبال ..

ليس يدنو الخوف منه أبداً \*\*\*\* ليس غير الله يخشى أحداً  
لحنه في القلب ناراً اشتعلاً \*\*\*\* من قيود الزوج والولد خلا  
معرض عما سوى الله الأحد \*\*\*\* يضع السكين في خلق الولد <sup>2</sup>

إن من واجبات المسلم إزاء محاولة استئناف الحياة الإسلامية وإرجاع الإسلام إلى الهيمنة من بعد الحدث الهائل في تنحيته هي واجبات واضحة بيّنة ، وأكثر من نراه من المسلمين المتحسين أصحاب الأمانى المتأوهين " يكون عالماً بها ، ولا تنهض همته إليها ، فلا يزال في حضيض طبعه محبوساً ، و قلبه عن كماله الذي خلق له مصدوداً منكوساً ، قد أسام نفسه مع الأنعام ، راعياً مع الهمل ، واستطاب لقيمات الراحة والبطالة ، واستلان فراش العجز والكسل ، لا كمن رفع له علم فشمّر إليه ، وبورك له في تفرد في طريق طلبه ، فلزمه و استقام عليه ، قد أبت غلبات شوقه إلا الهجرة إلى الله ورسوله ، ومقتت نفسه الرفقاء إلا ابن سبيل يرافقه في سبيله " <sup>3</sup>

فكذلك البرهان الذي يعطيه المسلم علامة لصدقة .

و كذلك حقاً تفعل الأشواق حين تصدق . !

ن صاحبها حينئذ يأبى إلا الهجرة والانضمام إلى القافلة .

ويذر كل رفيق يثبطه ويزين له إثثار السلامة ، إلا داعية يبثه همه ، ويتعاون معه على السير في طريق الجهاد ، ويعلمه علم البذل و فقه الدعوة والتبشير .

فحيهلا إن كنت ذا همة فقد \*\*\*\* حدا بك حادي الشوق فاطو المراحل

ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد \*\*\*\* و دعه فإن العزم يكفيك حاملا

فينتفض ، ويهجر كل قاعد ، ويهاجر مع المهاجرين إلى الله ..... ويخطب به ابن تيمية فيقول ، ويصف له الطريق و اضحاً : " الحرية حرية القلب ، والعبودية عبودية القلب " <sup>4</sup>

فيطرح أغلال الشهوات وحب الأموال عن قلبه ويصبح حراً , ويعود يأبى المنخفض الخبت ، ويرفض أن تواريه الوديان ، ويبتغي المرتفع العالي .

ومن أراد ذلك ارتقى سلم الارتفاع والسمو : الجهاد ، و فقه الدعوة .

قال تعالى : { يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات } .

" وقد أخبر سبحانه في كتابه برفع الدرجات في أربعة مواضع . أحدها : هذا . والثاني قوله : { إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون \* الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون \* أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم } . والثالث قوله تعالى : { ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى } . والرابع قوله تعالى : { وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة } .

<sup>1</sup> مفتاح دار السعادة 35/1 .

<sup>2</sup> ديوان الأسرار و الرموز / 39 .

<sup>3</sup> مفتاح دار السعادة 46/1 .

<sup>4</sup> مجموع الفتاوي 186/10 .

فهذه أربعة مواضع ، في ثلاثة منها : الرفعة بالدرجات لأهل الإيمان الذي هو العلم النافع و العمل الصالح . و الرابع : الرفعة بالجهاد ، فعادت رفعة الدرجات كلها إلى العلم و الجهاد " <sup>1</sup>

ولا تصل إلى هذا العلم وهذا الجهاد إلا بهمة ، ومن ثم كانت الهمة باب الدخول ، فمن امتلكها لان له كل صعب ، واستطاع أن يعيد هذه الأمة إلى الحياة مهما ضمرت فيها معاني الإيمان .. كما قال إقبال :

هم الأحرار تحيي الرمما \*\*\*\* نفخة الأبرار تحيي الأمما

و بالمقابل جعل رحمه الله : كل داء في سقوط الهمم .

و كذلك أمر المسلمين حين ضاق اليوم ، لا يفرجه ويوسعه إلا أصحاب الهمم العالية فحسب . ولذلك كان من تعاليم الإمام حسن البنا : " أن تستصحب دائماً نية الجهاد وحب الشهادة ، وأن تستعد لذلك ما وسعك الاستعداد " ، " و أن تعتبر نفسك دائماً جندياً في الثكنة تنتظر الأمر " <sup>2</sup>

وإنه لمعنى يفقهه من ذاق العلو ، محبوب عن يطلب السلامة .

قلت للصقر وهو في الجو عال : \*\*\*\* اهبط الأرض فالهواء جديب

قال لي الصقر : في جناحي وعزمي \*\*\*\* وعنان السماء مرعى خصب <sup>3</sup>

وهذا المرعى لا شك بجعله الأرضيون .. !

قال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض } .

" إنها ثقلته الأرض ، ومطامع الأرض ، و تصورات الأرض . ثقلته الخوف على الحياة والخوف على المال و الخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع . ثقلته الدعة والراحة والاستقرار . ثقلته الذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب . ثقلته اللحم والدم والتراب . والتعبير يلقي كل هذه الظلال بجرس ألفاظه : اثاقلتم - وهذه قراءة حفص ، وهي أبلغ تصويراً من القراءات التي ورد فيها : تثاقلتم - وهي بجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل ، يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل ، ويلقيها بمعنى ألفاظه { اثاقلتم إلى الأرض } ومالها من جاذبية تشد إلى أسفل و تقاوم رفرقة الأرواح وانطلاق الأشواق .

أن النفرة للجهاد في سبيل الله انطلاق من قيد الأرض ، وارتفاع على ثقلته اللحم والدم ، وتحقيق للمعنى العلوي في الإنسان و تغليب لعنصر الشوق المجتهد في كيانه على عنصر القيد والضرورة ، وتطلع إلى الخلود الممتد ، و خلاص من الفناء المحدود : { أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل } ، وما يحجم ذو عقيدة في الله عن النفرة للجهاد في سبيله إلا وفي هذه العقيدة دخل ، وفي إيمان صاحبها بها وهن . لذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : ( من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق ) . فالنفاق - وهو دخل في العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال - وهو الذي يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة عن الجهاد في سبيل الله خشية الموت أو الفقر ، والآجال بيد الله ، والرزق من عند الله ، { وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل } .

و من ثم يتوجه الخطاب إليهم بالتهديد : { إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ، ولا تضروه شيئاً ، والله على كل شيء قدير } . والخطاب لقوم معينين في موقف معين ، ولكنه عام في مدلوله لكل ذوي عقيدة في الله . والعذاب الذي يتهددون به ليس عذاب الآخرة وحده ، فهو عذاب الدنيا . عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح ، والغلبة عليهم للأعداء ، والحرمان من الخيرات و استغلالها للمعادين ، وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس و الأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح و الجهاد ، و يقدمون على مذابح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء " <sup>4</sup>

<sup>1</sup> مفتاح دار السعادة 50/1 .

<sup>2</sup> رسالة التعاليم ، المجموعة 24/ .

<sup>3</sup> لعبد الوهاب عزام في ديوان المثاني / 35 .

<sup>4</sup> في ظلال القرآن 223/10 .

لذلك رأى المودودي ضرورة الصراحة , فحسم أمر الهمة بألفاظ يظن القارئ أنها خشنة فقال : ( من دواعي الأسف أن الذين عندهم نصيب من القوى الفكرية و القلبية من النوع الأعلى من أفراد أمتنا هم مولعون بإحراز الترقيات الدنيوية ، جاهدون في سبيلها ليل نهار ، ولا يقبلون في السوق إلا على من يساومهم بأثمان مرتفعة , و ما بلغوا من تعلقهم بالدعوة إلى الاستعداد للتضحية في سبيلها بمنافعهم ، بل ولا بمجرد إمكانيات منافعهم . فإذا كنتم ترجون ، معتمدين على هذه العاطفة الباردة للتضحية ، أن تتغلبوا في الحرب على أولئك المفسدين في الأرض الذين يضحون بالملايين من الجنيهاات كل يوم في سبيل غاياتهم الباطلة ، فما ذلك إلا حماقة )<sup>1</sup> وبعد .. فإننا لا زلنا نعطيكم جمهرة من أبلغ القول وأحسن الكلام , وقد قال الزاهد الثقة يحيى بن معاذ رحمه الله أن "الكلام الحسن حسن ، وأحسن من الكلام : معناه وأحسن من معناه : استعماله" فقم إلى استعماله يرحمك الله :

وخل الهوينا للضعيف ولا تكن \*\*\*\* نؤوما فإن الحزم ليس بنائم

وهذه كتيبة الحق قد دنت منك في سيرها بنشيد هادر :

قد نهضنا للمعالي و مضى عنا الجمود

و رسمناها خطى للعز و النصر تقود

فتقدم يا أخا الإسلام قد سار الجنود

و مضوا للمجد إن المجد بالعزم يعود<sup>2</sup>

و كأنك قد أصغيت ، و استدركت قعودك ، و عفت مساعيك لاحراز الترقيات الدنيوية جانباً ، و آمنت بأنها آتية إليك دونما جهد وحرص . ثم كأنك أخذت مكانك في الكتيبة السانرة ، و بدأت تنشدكم مباحياً :

مهما عتا الأقزام والأعبد

و لوحوا بالقيد أو هددوا

عن نصره الإسلام هل أقعد

لا ، سوف أبقى دائماً أنشد

بفجره لا بد يأتي الغد<sup>3</sup>

## 11- العبد الحر

إن مسلماً نودي بالسير مع الهمم العالية ، فانتفض ، و أفلتت من قيود الأرض ، وحلق بجناح العزة : هو مسلم حري به أن يتم انتفاضته بخطوة تميز واضحة .

أو كما قال سيد رحمه الله : إن " أولى الخطوات في الطريق أن يتميز هذا المنهج و يتفرد ، ولا يتلقى أصحابه التوجيه من الجاهلية الطامة من حولهم ، كيما يظل المنهج نظيفاً سليماً ، إلى أن يأذن الله بقيادته للبشرية مرة أخرى " <sup>4</sup> ... وهذا يعني قيام مفاصلة شعورية وفكرية في ضمير المسلم ، ينفصل فيها التحديد الإسلامي الواضح للمعاني الثلاثة المهمة المكونة لكل منهج ، وهي : معنى الوطن ، ومعنى الحاكم ، ومعنى الدستور ، عن الاطلاقات الجاهلية في تفسيرها ، و عما بعد الإطلاق من اختلاف اجتهادات العقول . فالأمة

<sup>1</sup> تذكرة دعاة الإسلام /56 .

<sup>2</sup> لوليد في أغاني المعركة 106 .

<sup>3</sup> لوليد في أغاني المعركة 76 .

<sup>4</sup> في ظلال القرآن 21/4 .



الإسلامية قد حدد الله تعالى مقوماتها ، و جعل : " الجنسية فيها هي العقيدة . والوطن فيها هو دار الإسلام . والحاكم فيها هو الله . والدستور فيها هو القرآن .

هذا التصور الرفيع للدار و للجنسية و للقرابة هو الذي ينبغي أن يسطر على قلوب أصحاب الدعوة إلى الله ، و الذي ينبغي أن يكون من الوضوح بحيث لا تختلط به أضرار التصورات الجاهلية الدخيلة ، ولا تتسرب إليه صور الشرك الخفية . الشرك بالأرض ، والشرك بالجنس ، والشرك بالقوم ، والشرك بالنسب ، والشرك بالمنافع الصغيرة القريبة " <sup>1</sup>

وحملة الإسلام إنما ينطلقون بهذا المفهوم الإسلامي الواضح ، ويعلمونه ، دونما ملاطفة لأفكار الكفر الأرضية ، ولا مهادنة ، ولا محاولة استرضاء . وإنه لأمر جازم من الله لهم أن : { ادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون } .. " ولن يرضى الكافرون من المؤمنين أن يخلصوا دينهم لله وأن يدعوه وحده دون سواه ، ولا أمل في أن يرضوا عن هذا مهما لاطفوه أو هادنوه أو تلمسوا رضاهم بشتى الأساليب . فليمض المؤمنون في وجهتهم ، يدعون ربهم وحده ويخلصون له عقيدتهم ، ويصفون له قلوبهم . ولا عليهم رضي الكافرون أم سخطوا ، وما هم يوماً براضين " <sup>2</sup>

فما دامت هذه النتيجة حتمية ، وأن الكافرين لن يرضوا عن المؤمنين ، فليسلك الدعاة إذن ما يناسبها من مقدمات ترد على تمرد الكفر و رفضه الإيمان .

ولن يكون هذا الرد غير التميز ، و الانفصال عنه .

طالما أنه ليس هناك لقاء ، فإن المنطق يقتضي الانفصال إذن ، كما فاصلَ النبي صلى الله عليه وسلم كفار قريش في العهد المكي ، و كما فاصل كل القبائل بعد الهجرة . ولم تكن تلك المفاصلة النبوية الكريمة مجرد اضطرار لجأ إليه في حقبة تاريخية تبدو لنا آخذة دورها في تسلسل تاريخ الدعوة النبوية ، و إنما كانت حقيقة إيمانية و دلالة نعمة ربانية ، من شأنها أن يلتفت لها المؤمنون . و تلمس هذا في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذكرهم بها ، و يتخذها عاملاً تربوياً للذين معه ، فيقول لما صلى بهم يوماً صلاة العشاء قريباً من نصف الليل : ( أبشروا أن من نعمة الله عليكم أنه ليس من الناس أحد يصلي هذه الساعة غيركم ) <sup>3</sup> ، وذلك " قبل أن يفشو الإسلام في الناس " <sup>4</sup> كما يقول الراوي .

إنه جعلها بشرى ونعمة ربانية ، وكذلك تربي نفوس المؤمنين على معاني الاستعلاء ، وتؤكد إلحاحهم في تحدي الجاهلية كلها مهما فشت وعمت وانتشرت وكثر أصحابها ، ومهما قل عدد المسلمين وانحصروا في دويرة صغيرة ، كما كانوا في دويرة المدينة ومن حولهم هذه الجزيرة العربية الواسعة الأطراف ، الكثيرة القبائل .

والمس عظم أثر هذه التربية ، وتحولها إصراراً وثباتاً في الدين ، وتجديد عزم على المضي ، حين يقول من سمع هذه البشرى : " فرجعنا فرحين بما سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم " ... فتصور هذه الدويرة الإسلامية المتميزة في الجزيرة الكافرة . كانت هناك طبيعة إسلامية " تزاوّل نوعاً من العزلة من جانب ، ونوعاً من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة " <sup>5</sup> ، وهي في الحقيقة استمرار للمفاصلة التي كانت في العهد المكي ، فظهرت في المدينة بصورة كاملة واضحة . و ما كانت نفوس المسلمين لتصبر في المدينة على لوازم هذه المفاصلة لو لم تكن قد ربيت قبل الهجرة تربية صلبة عميقة على أولوياتها ومقدماتها ، فيومها : " في مكة ، لم تكن للإسلام شريعة ولا دولة ولكن الذين كانوا ينطقون بالشهادتين كانوا يسلمون قيادهم من فورهم للقيادة المحمدية ويمنحون ولاءهم من فورهم للعصبة المسلمة ، كما كانوا ينسلخون من القيادة الجاهلية ويتمردون عليها ، وينزعون ولاءهم من الأسرة والعشيرة والقبيلة والقيادة الجاهلية بمجرد نطقهم بالشهادتين " <sup>6</sup> .. كان " الإسلام هو تلك الحركة المصاحبة للنطق بالشهادتين ، هو الانخلاع من المجتمع الجاهلي وتصوراته وقيمه وقيادته وسلطانه وشرائعه ، والولاء لقيادة الدعوة الإسلامية وللعصبة المسلمة التي تريد أن

<sup>1</sup> معالم في الطريق / 146 .

<sup>2</sup> في ظلال القرآن 24 / 60 .

<sup>3</sup> صحيح مسلم 117/2 .

<sup>4</sup> صحيح مسلم 115/2 .

<sup>5</sup> معالم في الطريق / 9 .

<sup>6</sup> في ظلال القرآن 280/9 .

تحقق الإسلام في عالم الواقع " <sup>1</sup> , فلما تجلّى هذا التميز بصورة أوضح في المدينة ، صار المجتمع الإسلامي مناراً واضحاً في تلك الصحراء ، يأوي إليه الهائم والمتشكك ، ومن يحتدم في قلبه الصراع بين الإيمان والكفر الموروث .

فلما اتسع المجتمع الإسلامي ، وانتصر ، ودانت كل الجزيرة بدين الله : استمرت هذه الحاجة إلى مفصلة بقايا الجاهلية المتماثلة ببقايا النفاق واتباع الشهوات .

وهي مفصلة ثانية ، واجبة أيضاً . فكما أن المفصلة الأولى أفادت في إيجاد عزة الإيمان في نفوس المفصلين ، وفي جعل المدينة مناراً يأوي إليه الحائر ، فإن المفصلة الثانية كانت ضرورية للحفاظ على نقاوة جهاز دولة الإسلام ، المحافظ على سمات حكمه وفقهه وتربيته وفتوحه . ومن هنا دعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى هذه المفصلة الثانية بعبارة جامعة رائعة فقال : (إن الله عبداً يميّتون الباطل بهجره ، ويحيون الحق بذكره) <sup>2</sup>

وقد استعمل كلمة الهجر للدلالة على المفصلة التي نعيها . وهذا يعني أن عنصر النفاق واتباع الشهوات كلما زاد في المجتمع ، زادت هذه الحاجة إلى هذا النوع الثاني من المفصلة ، بعملية طردية ، ليبقى الباطل باطلاً مشاراً إليه بأصبع الاتهام ، ولنا يحيله التقدم إلى حق موهوم في ذهن الذين لا يعون ، فينطلي زوره ، وينسى الناس اعوجاجه ، ولنا تستسيغه النفوس من بعد ، حين يطول الأمد .

ولذلك فإن الدعوة الإسلامية اليوم لا بد لها إزاء زيادة النفاق والفسق واتباع الشهوات في المجتمع الحاضر من هذه المفصلة ، ومن هذا التميز ، بشكل واضح صريح ، لتبقى الصورة الإسلامية جلية واضحة بدورها ، يمكن أن ينظر إليها من يبتغي النظر إليها ، ممن تحفزهم كلمات الدعاة لمحاولة اكتشاف أبعاد هذه الصورة ، والتفتيش عنها وتلمس مثل تطبيقي لها .

والحقيقة أنه وإن افتقد الدعاة في هذا القرن صورة حكم إسلامي يصلح مثلاً لتطبيق الإسلام ، إلا أن هذا المثل يمكن أن يتجلى في بعض أشخاص من الدعاة ، تتضح فيهم معاني الإسلام ، ويكتسبون من هيئته ، و يبلغون الذورة في الإيمان والتجرد وتطبيق السنة النبوية الشريفة . وهذا هو معنى ( القدوة ) في صورتها البسيطة .

إن وجود ( القدوة الإسلامية ) يعني وجود شخص يدرك الناظر إليه أنه مستقل في فكرته وعقيدته ، وسكناته وحركاته ، عما حوله ، منفصل عنهم ، تميزه الأبصار قبل المعاملة ، بما تعلوا وجهه من معالم السكينة والهيبة والحزم التي شاء الله أن ينفرد بحيازتها المسلم دون غيره ، فيعوض بذلك عن صورة الحكم الإسلامي المفقود ، ويكون بديلاً لها ، وبرهاناً على أن الإسلام قادر أن ينتج مثل هذه النماذج الإنسانية الرفيعة ، أو بالأحرى : يكون برهاناً على أن مثل هذه النماذج لا ينتجها غير الإسلام .

و أبو القاسم الجنيد رحمه الله يعبر عن هذا الانفصال للقدوة الإسلامية بعبارة ( الحرية عما سوى الله ) ، أي ليس بينه وبين ما سوى الله رابط أو قيد أو نسب أو ميل أو رغبة ، بل هي الحرية بمدلولها الذي يفهمه كل حر ، فيقول : " لا يكون العبد عبداً حتى يكون مما سوى الله تعالى حراً " <sup>3</sup> ويعبر مرة أخرى عن هذا الانفصال بأنه " عبودية الأحرار " أو " حرية العبيد " ، فيصوغ سطرأً بليغاً رفيعاً يغني عن عشر مجلدات ، ويقول : " إنك لا تصل إلى صريح الحرية عليك من حقيقة عبوديته بقية " .

فلأن الإسلام كله عبودية لله تعالى ، فإن العبد التام العبودية الذي سماه الجنيد ، هو وحده الحر في هذا الوجود دون غيره من أسارى الشهوات واجتهادات العقول القاصرة ، وهذا التعبير الجميل ورثه الجنيد عن أفضل الزهاد العباد : الفضيل بن عياض رحمه الله ، إذ أبرز الفضيل بمقابل الحرية مما سوى الله : واجب المسلم في تجريد الربانية له واطراح كل ربانية لأحد من الخلق يريد أن يفرضها عليه بثمن مادي ، أو بالقسر والاكراه ، فيقول الفضيل : " والله ، ما صدق الله في عبوديته من لأحد من المخلوقين عليه ربانية " <sup>4</sup> . فالمسلم يفرد الله بالعبادة ، وإفراده بالعبادة يقتضي أن يعلن بصراحة ووضوح براءته مما يعبد الغير ، ومما يشرعون لأنفسهم ، ويجهر بذلك مفصلاً ، كما فاصل نبي الله هود عليه السلام قومه بقوله : { إني أشهد الله وأشهدوا أنني بريء مما تشركون من دونه فكيّدوني جميعاً

<sup>1</sup> في ظلال القرآن 280/9 .

<sup>2</sup> كتاب الخراج لأبي يوسف 13 .

<sup>3</sup> مجموع فتاوي ابن تيمية 598/10 .

<sup>4</sup> مجموع فتاوي ابن تيمية 599/10 .

ثم لا تُنظرون \* إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم \* فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ {

" إنها انتفاضة التبرؤ من القوم - وقد كان منهم وكان أخاهم - وانتفاضة الخوف من البقاء فيهم وقد اتخذوا غير طريق الله طريقاً . وانتفاضة المفاصلة بين حزبين لا يلتقيان على وشيجة ، وقد انبثت بينهما وشيجة العقيدة . وهو يشهد الله على براءته من قومه الضالين وانعزاله عنهم وانفصاله منهم ، ويشهدهم هم أنفسهم على هذه البراءة منهم في وجوهم ، كي لا تبقى في أنفسهم شبهة من نفوره و خوفه أن يكون منهم . و ذلك كله مع عزة الإيمان واستعلائه ، و مع ثقة الإيمان واطمئنائه ! وإن الإنسان ليدش لرجل فرد يواجه قوماً غلاظاً شداداً حمقى ، يبلغ بهم الجهل أن يعتقدوا أن هذه المعبودات الزائفة تمس رجلاً فيهذي ، و يروا في الدعوة إلى الله الواحد هذياناً من أثر المس ! يدش لرجل يواجه هؤلاء القوم الوثائقين بآلهم المفتراه هذه الثقة ، فيسفه عقيدتهم و يقرعهم عليها و يؤنبهم ، ثم يهيج صراوتهم بالتحدي لا يطلب مهلة ليستعد استعدادهم ، ولا يدعهم يترثون فيفتأ غضبهم . إن الإنسان ليدش لرجل فرد يقتحم هذا الاقتحام على قوم غلاظ شداد ، و لكن الدهشة تزول عندما يتدبر العوامل و الأسباب .

إنه الإيمان ، و الثقة ، و الاطمئنان . و الإيمان بالله ، و الثقة بوعده ، و الاطمئنان إلى نصره ، الإيمان الذي يخاطب القلب ، فإذا وعد الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب لا يشك فيها لحظة ، لأنها ملء يديه ، و ملء قلبه الذي بين جنبيه ، وليست وعداً للمستقبل في ضمير الغيب ، إنما هي حاضر تتملاه العين و القلب " <sup>1</sup>

{ إن ربي على صراط مستقيم } ..

" فهي القوة والاستقامة والتصميم . وفي هذه الكلمات القوية الحاسمة ندرك سر ذلك الاستعلاء وسر ذلك التحدي . إنها ترسم صورة الحقيقة التي يجدها نبي الله هود عليه السلام في نفسه من ربه . أنه يجد هذه الحقيقة واضحة . إن ربه ورب الخلق قوي قاهر : { ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها } ، وهؤلاء الغلاظ الأشداء من قومه إن هم إلا دواب من تلك الدواب التي يأخذ ربه بناصيتها و يقهرها بقوته قهراً ، فما خوفه من هذه الدواب و ما احتفاله بها ، وهي لا تسلط عليه - إن سلطت - إلا بإذن ربه ؟ وما بقاؤه فيها وقد اختلف طريقها عن طريقه ؟ إن هذه الحقيقة التي يجدها صاحب الدعوة نفسه ، لا تدع في قلبه مجالاً للشك في عاقبة أمره ، ولا مجالاً للتردد عن المضي في طريقه . إنها حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب الصفوة المؤمنة أبداً " <sup>2</sup> .

وقد فقه الإمام البنا رحمه الله هذه النظرية في المفاصلة ، فنادى بوجوب تربية النشء وفق معانيها ، وأوضح أن مستقبل الإسلام إنما يعتمد على " هذا النشء الجديد ، فأحسنوا دعوته ، وجدوا في تكوينه ، وعلموه استقلال النفس والقلب ، واستقلال الفكر والعقل ، واستقلال الجهاد و العمل ، واملأوا روحه الوثابة بجلال الإسلام وروعة القرآن ، و جندوه تحت لواء محمد ورايته ، و سترن منه في القريب الحاكم المسلم الذي يجاهد نفسه و يسعد غيره " <sup>3</sup> ... فهو قد عبر عن المفاصلة بالاستقلال ، كما عبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه عنها بالهجر . فاستقلال النفس والقلب هو المفاصلة الشعورية في الضمير ، و العزة و الاستعلاء .

و استغلال الفكر هو عدم خلط الشريعة بالتصورات الأرضية المبتدعة التي أضلت الأحزاب . و استقلال العمل هو التميز في الصف ، و ترك الأحلاف . وكما أنها مهمة هؤلاء الدعاة في تربية النشء ، فإنها مهمتهم في وجوب الانتباه لنفوسهم ، والثبات على هذه المفاصلة . أو كما قال الإمام : " لا تصغروا في أنفسكم ، فتقيسوا أنفسكم بغيركم ، أو تسلكوا في دعوتكم سبيلاً غير سبيل المؤمنين ، أو توازنوا بين دعوتكم التي تتخذ نورها من نور الله ، و منهاجها من سنة رسوله ، بغيرها من الدعوات التي تخلقها الضرورات ، و تذهب بها الحوادث و الأيام " <sup>4</sup> . ومن مكملات ذلك و ضرورياته حفظ صفاء الابتداء و نقاوته ، و كما يجب على الداعية أن يحفظ لمن يدعوهم الهمة ، و يسيرهم مع الهمم العالية ، فإن عليه أن يحفظ لهم صفاء الابتداء ، فإن الأيام الأولى للسير في طريق الدعوة تحسم مدى الصفاء مثلما تحسم منزلة الهمة .

<sup>1</sup> في ظلال القرآن 97/12 ، 98 .

<sup>2</sup> في ظلال القرآن 97/12 ، 98 .

<sup>3</sup> تحت راية القرآن ، المجموعة / 319 ، 321 .

<sup>4</sup> تحت راية القرآن ، المجموعة / 319 ، 321 .

إن من يفتح عينه على المفاهيم الإسلامية النقية المستمدة من القرآن و السنة فحسب غير المشوبة بترهات غير إسلامية فإنه يبدأ وينشأ ويشب و يشيب و يموت على هذه المفاهيم ، و من سقي المخالط ذات الشوائب صعبت عليه التنقية بعد .  
و لقد وعى أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصر آبادي المتوفي سنة 367 هـ هذا المعنى أروع الوعي فقال :  
" ما ضل أحد في هذا الطريق إلا بفساد الابتداء , فإن فساد الابتداء يؤثر في الانتهاء " .

فأحسن البداية و أتقنها يا داعية الإسلام .

## 12- قصص من لهُو الدعاة

ما كان لأهل الحركة الإسلامية و من حولهم من ناشئة الابتداء أن يتخلفوا عن السير نحو أفراح الآخرة ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن حاجات الدعوة ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ، ولا غبار في سبيل الله ، ولا يتكلمون كلمة تغيظ الأحزاب الأرضية ولا ينالون من ملحد نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ؛ ولا ينفقون نفقة من التعب صغيرة أو من الهول كبيرة ، ولا يجوبون محلة أو مدرسة أو جامعة أو مصنعاً إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون .

و كيف يلتذ داعية براحة وهم قد لقنوه من أول يوم أن ينشد :

في ضميري دائماً صوت النبي \*\*\*\* أمراً : جاهد و كابد و اتعب

صائحاً : غالب و طالب و ادأب \*\*\*\* صارخاً : كن أبداً حراً أبي

و كيف يميل إلى استرخاء ، و أصحابه يهتفون :

تبنى ، ولا نتكل \*\*\*\* نفني ، ولا ننخذل  
لنا يد والعمل \*\*\*\* لنا غد والأمل

إن حرية الداعية ، والأمل الذي يستيقته : يدفعان به دفعاً إلى البذل السخي .

#### • علو في الحياة :

حرية .... و أمل

حرية تكسر قيود الشهوات

و أمل بالأجر ، و ثقة بالنصر

كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في ميزان التصارع العقائدي ، كانتا دوماً في تاريخ التوحيد الطويل ، تأخذان التعب من أجيال الدعاة من النبيين والصديقين والراشدين و التابعين و من لحقهم بإحسان على مر القرون ، فكلهم بالتعب كانوا يفرحون بأبواب العلو في الحياة ونحن إن شاء الله بهم لمقتدون .

كان تعبهم يتمثل أحياناً بحركة يومية دائبة في الإنذار والتبشير ، والتجميع والتبصير ، أو سهرراً على رعاية مصالح المسلمين . و يتمثل أحياناً في انكباب على التعلم واجتياز المفاوز لحيازة حديث أو كلمات فقه .

ويتجسد في أخرى قتالاً ، وتحفيزاً دائماً لجهاد وعلو موت . وفي أخرى إشغالاً للفكر في التخطيط .

وفي أخرى إشغالاً للفكر في التخطيط .

فإن أخذوا راحة ، واستلقوا على ظهورهم : لبث ذهنهم يصطاد الخاطر .

وكل ذلك حكي التاريخ ، ليتعلم الدعاة اليوم .

#### • نطق بالليل والنهار :

فأول من يطالعنا : الأنبياء عليهم السلام . كان لسانهم ناطقاً بالليل والنهار ، و الإعلان و الإسرار . قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام : { قال رب إنني دعوت قومي ليلاً ونهاراً } ، ثم قال : { ثم إنني دعوتهم جهاراً ثم إنني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً } .

#### • ونطق أثناء خطوات الهجرة :

" والواقع أن الداعي إذا كان صادقاً في دعوته منشغلاً بها لا يفكر إلا فيها ولا يتحرك إلا من أجلها ولا يبخل عليها بشيء من جهده ووقته لم يشغله عنها شاغل أبداً حتى في أخرج الساعات وأضيق الحالات وأدق الظروف ، وهكذا كان رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فعندما هاجر إلى المدينة ومع أبو بكر الصديق رضي الله عنه لقي في طريقه بريدة بن الحصيب الأسلمي في ركب من قومه فيما بين مكة والمدينة ، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا . وهذا يدل أنه عليه الصلاة والسلام لم يغفل عن الدعوة إلى الله حتى وهو في طريقه مهاجراً إلى المدينة و القوم يطلبونه " <sup>1</sup>

#### • ونطق في السجن :

" ويوسف عليه السلام عندما دخل السجن مظلوماً لم يشغله السجن و ضيقه عن واجب الدعوة إلى الله ولهذا فقد اغتنم سؤال السجينين عن رؤيا رأياها ، فقال لهما قبل أن يجيبهما ما أخبرنا الله به : { يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار } " <sup>2</sup>

<sup>1</sup> أصول الدعوة /284 .

<sup>2</sup> أصول الدعوة /284 .

#### • الراشد يمنع النوم :

وقاربهم الصديق أبو بكر رضي الله عنه حتى قال عند وفاته : " والله ما نمت فحلمت ، ولا توهمت فسهوت ، و إنني لعلى السبيل ما زغت " <sup>1</sup> . يعني أنه قد شغلته حروب الردة و الفتوح وأرهقه إرساء جهاز الدولة ، حتى أنه ما كان ليستغرق في نومه ليتاح له أن يحلم ، وظل يزداد بعد النبي صلى الله عليه وسلم في الصديقية ليهبه الله تعالى يقظة أثناء هذا التعب تبعد عنه الوهم والسهو .

#### • الترابي ..... !

ويترجم عبدالله بن عباس رضي الله عنه انغماسه في صورة جمع بين التواضع والصبر على مشقة التعلم وجمع الحديث ، حتى أن الريح لتسفي عليه التراب ، يرجو بذلك أن يستنشق نسمات الجنة ، ويجتاز الصراط بلا حساب .  
واسمعه يروي ما كان منه ويقول : ( أقبلت أسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحديث ، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فأتي بابيه وهو قائل ، فأتوسد ردائي على بابيه ، تسفي الريح علي التراب ، فيخرج فيقول لي : يابن عم رسول الله ما جاء بك ؟ ألا أرسلت إلي فأتيتك ؟ فأقول : لا ، أنا أحق أن أتيتك ، فأسأله عن الحديث ) <sup>2</sup> . ولو شاء أن يوقظوه لأيقظوه له مع الفرح ، ولكن الهمم العالية تطرب لصفير الرياح ولفحات التراب .

#### • هواية رفع الأثقال

والداعية اللبيب يسابق أصحابه لحمل كل ثقل من الأمور ، فيكون يوم الجمع صاحب الميزان الثقيل ، كما تسابق النخعيون يوم معركة القادسية . قال أحد الصحابة منهم : " أتينا القادسية ، فقتل منا كثير ، و من سائر الناس قليل ، فسئل عمر عن ذلك فقال : أن النخع ولوا عظم الأمر و حدهم " <sup>3</sup> .  
وما كان أحد ممن حضر القادسية إلا و أبلى ، و لكن الدعاة إلى الله لهم هواية التسابق في رفع الأثقال .

#### • حصن التربية الأسدية

والذروة يعلوها التابعي العابد الفقيه المحدث الجليل أبو وائل شقيق بن سلمة الأسدي ، نتاج تربية الأربعة الراشدين و ابن مسعود و سعد بن أبي وقاص و غيرهم ، فإنه عاف التجارات و البيوت و بنى له في الكوفة حصناً صغيراً يسعه هو و فرسه و سلاحه فقط ، و بقي طول عمره متحفظاً للجهاد ، حتى لم يعد يعرف موازين السوق التي يتعامل بها الناس <sup>4</sup> . تجرد حق التجرد ، فأنتج حق الانتاج ذرية تجرد تتبعه ، يعلم الدعاة بذلك طريق إنتاج الرجال باستخدام وسائل الايضاح البصرية المجسدة .  
أنتج أبو وائل أمثال : سليمان الأعمش ، و منصور بن المعتمر ، و حصين بن عبد الرحمن ، و عمرو بن مرة ، و غيرهم من فحول المحدثين .

إن من لا يفهم التربية يظن أن بناء هذا الحصن من التكلف و الرياء ، وما هو كذلك .

#### • ذهب الفراغ ....!

<sup>1</sup> الخراج لأبي يوسف 11/

<sup>2</sup> طبقات ابن سعد 368/2 .

<sup>3</sup> الاصابة 28/1 .

<sup>4</sup> كتاب الثقات لابن حبان 108/ .

و يموت شقيق الأسدي مع نهاية قرن الخير الأول ، فيبادر الراشد الخامس عمر بن عبدالعزيز إلى ضرب الأمثال . تصفه زوجته فاطمة بنت عبد الملك فتقول : " كان قد فرغ للمسلمين نفسه ، ولأمورهم ذهنه ، فكان إذا أمسى مساءً لم يفرغ فيه من حوائج يومه : وصل يومه بليته " <sup>1</sup> . يضرب المثل بذلك لداعية الإسلام إن أراد أن يصدق دعوته و يؤدي الأمانة .

صدق الداعية : أن يجدد أطوار عمر فيفرغ نفسه للمسلمين ، فلا تجد له حركة دنيوية إلا بمقدار ما توجبه ضروريات إطعام عياله . و يفرغ ذهنه ، فليس فيه إلا تفكر بمصالح الدعوة .

ويتعرض أصدقاء قداماء لعمر ، من أصدقائه قبل الخلافة يوم كان فارغاً ، يودون أن تكون لهم معه جلسة يعيدون فيها الذكريات ، فيقولون : " لو تفرغت لنا " ، فيقول : " وأين الفراغ ؟ ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله " <sup>2</sup> ..

يلقنها لمن يدخل الدعوة بعده إذا دعاهم رفاق الأمس إلى قتل الأوقات .

#### • موفق يجوب بحقيبة العلم راجلاً

ويستمر تلامذة أحمد بن حنبل ، وأتباع مذهبه من بعده ، يضعون وسائل الإيضاح البصرية في الاستخدام التربوي ، فإنهم كما وصفهم الفقيه النحوي ابن عقيل : " غلب عليهم الجد ، وقل عندهم الهزل " <sup>3</sup> .

فمن تلامذته : الحافظ الإمام الفقيه الزاهد المحدث : إسحق بن منصور المعروف بالكوسج ، شيخ البخاري ومسلم وغيرهما . كان يسكن نيسابور بخراسان ، فرحل إلى بغداد ودون عن أحمد بن حنبل مسائل في الفقه كثيرة ، ورجع إلى نيسابور ، ثم إنه : ( بلغه أن أحمد بن حنبل رجع عن بعض تلك المسائل ، فحملها في جراب على كتفه ، وسافر راجلاً إلى أحمد ، ثم عرض خطوط أحمد على كل مسألة استفتاه عنها فأقر له بها وأعجب به ) <sup>4</sup> ... وأحدنا الآن يجلس على أريكته و بجانبه مسند أحمد مطبوعاً محققاً مجلداً مذهباً يتكاسل أن ينظر فيه .

#### • الحنابلة يحفظون السمات

ويرسم ابن عقيل ، النحوي الفقيه الحنبلي ، صورة الداعية الذي لا تكون خطراته وسبحات فكره - بل أحلامه إذ ينام - إلا في الدعوة ، ويجلي ذلك بقوله : " إنني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري ، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة ، وبصري عن مطالعة : أعلت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح " <sup>5</sup> ... فانظر ، كم ساعة من نهارك و ليلك تضيع سدى ؟

وخلفه الشيخ الزاهد الفقيه محمد بن أحمد الدباهي . قالوا : ( لازم العبادة ، والعمل الدائم والجد ، واستغرق أوقاته في الخير .. صلب في الدين ، وينصح الإخوان ، و إذا رآه إنسان : عرف الجد في وجهه ) <sup>6</sup> .

وهكذا يجب أن تكون دائماً علامة الدعاة سيماهم في الجد ظاهرة في وجوههم ، لا يخطوها النظر .

ليس لهم نصيب من الهزل و الضحك و البطالة .

#### • أصحاب الإمام البنا يجددون

وجدد جيل هذا القرن من الدعاة في مصر تلك الصور الرائعة القديمة ، ليبرهنوا أن الإسلام الذي أنتج أولئك لا يزال حياً . يصف الإمام حسن البنا أصحابه فيقول : ( قد سهرت عيونهم والناس نيام ، وشغلت نفوسهم و الخليون هجع ، وأكب أحدهم على مكتبته من العصر إلى منتصف الليل ، عاملاً مجتهداً ، و مفكراً مجداً ، ولا يزال كذلك طول شهره ، حتى إذا ما انتهى الشهر جعل مورده مورداً

<sup>1</sup> سيرة عمر لابن عبد الحكم / 146 .

<sup>2</sup> طبقات ابن سعد 397/5 .

<sup>3</sup> نيل طبقات الحنابلة 152 / 1 .

<sup>4</sup> تذكرة الحافظ للذهبي 524 / 2 .

<sup>5</sup> نيل الطبقات الحنابلة 146/1 ، 361/2 .

<sup>6</sup> نيل طبقات الحنابلة 146/1 ، 361 / 2 .

لجماعته ، ونفقتة : نفقة لدعوته ، و ماله : خادماً لغايته ، ولسان حاله يقول لبني قومه الغافلين عن تضحيتة : { لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الله } <sup>1</sup>

\* و علو في الممات .. !

وكما في مصر ، كان من رعييل العراق الأول : أبو صفوان الدباغ صاحب رسالة ( مع الناشئة ) ، الرسالة الصغيرة البسيطة جداً ، الطريفة جداً .

حدثني الثقة من أقرانه ، قال : ( كان مريضاً بالسرطان ، و اشتد مرضه سنة اثنتين و خمسين و تسعمائة و ألف ، فرقد في المستشفى أياماً ، و كانه أحسنّ بلحظات حياته الأخيرة ، فطلب مواجهة قائد الدعوة آنذاك ، فجاءه و معه بعض الدعاة - فيهم راوي القصة - فأعلمهم بقرب موته ، وشهد أن لا إله إلا الله ، و قرأ شيئاً من القرآن ، و صافح يد القائد ، و أعلن تجديد بيعته و ثباته على هذه الدعوة و حملهم السلام إلى من كان من الدعاة آنذاك و إلى من سيلتحق بعد ، ثم أعاد الشهادة و مات من فوره ، بعد تجديد بيعته بقليل ) .. رحمه الله ... فتأمل هذه منقبة لا يرزقها إلا من كان توجهه صادقاً في حياته .  
وتأمل علو همته . كانه في قاعة مطار يودع أو على رصيف محطة قطار .

أخ لك سابق غادر الحياة ولعلك لم تولد بعد يحييك ويبلغك السلام ، و يطلب منك الثبات على هذه الدعوة التي جربها في آخر لحظات حياته فوجد لذة السير إلى من أنعم بها على عباده .

إن في ذلك لعة تغني اللبيب عن كثير من الكلام المنمق والبلاغة المتكلفة .

حقاً إن الهمم مراتب ، ولا تعلو همة في نهايتها وعند موتها إلا إذا علت في بدايتها .

وقائع وقصص يمرُّ بها الداعية يأخذ منها الدروس والعبر ، والهمام من يقول : اللهم اجمعنا وإياهم في دار كرامتك .

وكذلك نقصص القصص لدعاة الإسلام لعلهم يقتدون .

---

<sup>1</sup> إلى أي شيء ندعو الناس ، المجموعة 129 .